ج. م. غ. لوكليزيو

قلب يحترق

وقصص أخرى

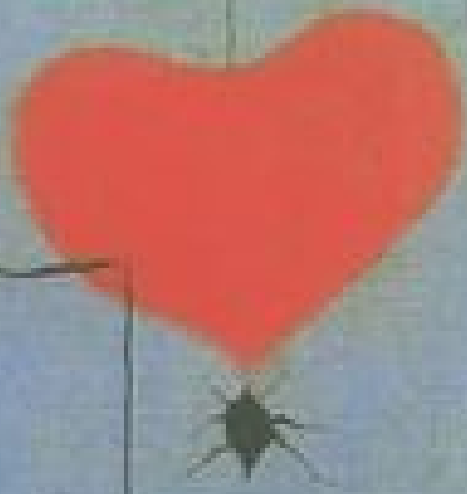

ترجمة عبد الرحيم حزل

كلمة
التنوير

ج. م. غ. لوكليزيو

قلب يحترق

وقصص أخرى

دار التنوير

جميع الحقوق محفوظة ©

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني - هاتف وفاكس:
009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف
(البستان سابقًا)–الدور 8–شقة 82

هاتف: 0020223921332 فاكس:
0020227738932

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تابعونا على

Daraltanweer@

Dar Altanweer

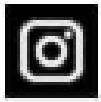

daraltanweer

قلب يحترق

(١)

إن من تود أن ترى هي بيرڤينش، كما تبدو في الصورة الملتقطة لها في صيف ٨٢، وهي تقترب من ربيعها الثالث امرأة شديدة القصر، ترتدي تبانًا أبيض وتي شورت مزينًا بتويني أصفر كناري أمام البيت في شارع توليبان، والجانب من الجنينة الذي اكتسحته الأعشاب الطفيلية، ومعها زمرة الأطفال بكامل أفرادها؛ جوزيفينا الملقبة ببينًا، الكبرى وروزالبا لاغويرا، شديدة الشحوب، التي تبدو عليها سيماء المرض، وكلمنتينا، ومايبيرا الصغيرة، وبيطو الراعي وكارلوس، المدعو كارلوس كينتو، الواقف يتقدم الآخرين قليلًا، بصدره البارز من قميصه، وشعره الذي يطيله كفتاة لنذر قطعه على نفسه إن شفيت أمه من سعال خبيث. من المؤكد أن شاڤيلا اليتيمة كانت في زمرة الأطفال، لكنها لم ترغب في الظهور في الصورة، وهي في أسمالها التي لا تفارقها، ووجهها المبقع بالسخام، وشعرها القصير المجعد المنتفش فوق رأسها، المختلط بقذى التبن. وفي البيت الإسمنتي الصغير المجاور أمُّ بينا، وهي امرأة لطيفة، على شيء من فتور؛ كانت تمضي وقتها تصبغ أظافرها، وإلى جوارها جدها المسن، الأشبه بشيخ روحي يدعو النحل بالقرع بمغرفة على طنجرة قديمة.

ودّت كليمونص لو يمتد هذا الزمن قليلًا. في الصورة تُرى بيرڤينش وقد تشبثت بها، وذراعاها الصغيرتان الممتلئتان مرفوعتان إلى الخلف بحثًا عن يديْ أختها، وعلى محياها المدوّر ارتسمت ابتسامة خجولة، أقرب إلى التكشيرة التي تسبق البكاء. لم تكن تعرف الكلام؛ فهي تقول : «aboua» إذا شعرت بالعطش و«doussé»، إذا رغبت في ملبس. ظلت كليمونص تصون هذه الصورة، لم تفرط فيها قطّ ولو سنين بعدُ،

وهي طالبة في بوردو؛ فقد ثبتتها على حائط غرفتها في مدرسة القضاء. كانت الصورة الحقيقية لبيرڤينش، حقيقية أكثر من الواقع الذي تلاها. وقد باتت الصورة الآن باهتة ومتصلبة بفعل الشمس، وانتقلت من فوق مبرّد إلى فوق مدفأة، لينتهي بها المطاف فوق مكتبها في القصر؛ حيث تقف مائلة قليلًا، مستندة إلى إضبارة وإلى قدح الأقلام. لكن ما لن تفعله كليمونص أبدًا، أبدًا، هو أن تضعها في إطار. في الصورة استحال التي شورت في لون البول والجدار أبيض كأنه مقشر، والأعشاب الطفيلية ذابلة. لكن كارلوس كينتو ظل على سمرته الفاحمة لم تخل عنه، وشعره المنسدل على كتفيه؛ يحكي واحدًا من الجيڤارو. فكلما نظرت كليمونص في الصورة أحست بحرارة الشارع وشمس الظهيرة تشوي الأرض المتربة. وبعيد ذلك إذا تجاوزت بيت سكوبيدو، عند الزاوية، كان هنالك صنبور لماء الشرب، وطابور النساء المنتظرات أن يملأن طناجرهن أو سطولهن التي اتخذنها من علب الشحوم، وجعلن لها مقابض من قطع خشبية. كانت كليمونص تذهب ببيرڤينش لجلب الماء. فكانت بيرڤينش تخشى الزنابير التي تحوم حول الصنبور. في ذلك المكان يتلاقى الأطفال في ميقات واحد؛ في الظهيرة بعد الخروج من الفصل. روزالبا وبينا وكذلك بيطو، وشاڤيلا التي لم تكن تذهب إلى المدرسة. كان الماء يجري عرقًا رقيقًا، لكن صافيًا زلالًا. وكانت هيلين تعذ الطعام في البداية بماء البئر، لكنهن أصبن جميعًا بآلام في الكلي. قال لهن إدوارد إن ماء الصنبور بارد، فهو يأتي من نبع في سفح البركان، على الجانب الآخر من القرية. وقد ينقطع الماء أحيانًا، فيقول الناس إن المنبع ينضب لأن الأثرياء الذين أقاموا في الأحياء الجديدة، على الجانب الآخر من القناة، لديهم في جنائنهم مسابح. إنهم يسكنون أحياء تسمى «ريزوريكسيون»، و«بارايزو»، و«إنسوينيو» وأسماء أخرى من هذا القبيل، وإن هي إلا ادعاء

فارغ. فقد كان الماء ينعدم في معظم صعيد القرية، فتصطف النساء طوابيز بطول كيلومتر أمام الصنبور لملء سطولهن.

وأما الأطفال فما كانوا يجدون في الأمر كبير عناء. فكنت تراهم على الدوام في لعب وضحك وصياح. وتراهم يتقاذفون الماء، فتنقلب السطول. ويأتي بيطو على دراجته البالية التي لا تتعذر عليها أرض، بسرجها المهتز، ثم يظهر من جديد وقد حمل العلب الممتلئة ماء في توازن، على المقود وفوق الهيكل. وقبل أن تأتي كليمونص إلى الصنبور لتملأ القدر كانت تصطحب معها بيرڤينش لترى القرد العنكبوتي المقيد إلى سلسلة في طرف الشارع. كان ذلك البيت خاليًا، إلا من ذلك القرد الأسود الضخم المشعث، الشرس، المثير للشفقة، وهو لا يفتأ يكشر عن أنيابه الصفراء الشنيعة، كأنما يتأهب لهجوم. فكانت بيرڤينش تتشبث بكليمونص، وتخفي وجهها، وتحين منها إليه نظرة خاطفة، ثم تطلقان ضاحكتين مغا سيقانهما للريح. كل ذلك بات اليوم بعيدًا جدًا، لكنه لا يزال حيًا مؤازًا. لم تنس كليمونص ذلك الزمن قط؛ فقد كانت تعود لتنغمر فيه في كل لحظة وحين، كما في حلم مسترسل لا ينقطع.

صارت كليمونص الآن لا تجد إلى النوم في الليل من سبيل. فهي لم تنعم بليلة واحدة هادئة منذ أن رحلت بيرڤينش. ففي كل صباح، في حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة، تستيقظ على ثلاث رنات قصيرة، لكن لحوحة فتنتصب فوق سريرها متصببة عرقًا، شديدة وجيب القلب. وأما پول فينام هانئًا في ركنه، تسمع له شخيرًا خافتًا.

ولذلك فقد تخلصت كليمونص من كل شيء. فكأنما تتبع بإصرار مخططًا سريًا. طردت عنها علاقات الدراسة والأماسي التي كانت تقضيها مع الأصدقاء. لم يهتد پول إلى فهم ما يجعلها تقرر أن تنام في مكتبها على الكنبة. فعلتها من غير صراخ، ولا ملامات، وبو جهها العنيد، وسفتها اللامبالي، لكي لا

تعود لممارسة الجنس، ولكي تدفع عنها الرقة التي تصيب بالنسيان وتسكّن الحرقات.

كان الجو شديد الحر في ذلك الصيف حين رحلت بيرڤينش. فكان الإسفلت يذوب في الشوارع، والشجيرات تجف في آنيتها. وانخفضت السماء، فصارت تختلط بالبحر الرمادي. ماء ثقيل رصاصي، لا يكاد يتحرك. فإذا حل المساء اكتسى كل شيء صبغة وردية لامعة، شهية وضارة. كانت كليمونص تتذكر تلك النهارات، كأنما الحر ولون السماء والبحر قد كان لها دور حاسم في فرار بيرڤينش، وأنها قد تأدت بها إلى الكارثة، وإلى الدمار. كان ذلك الجو وذلك الماء الكالحان، الخانقان، ينفذان إلى بيرڤينش، ويدفعانها إلى الأسفل.

كان مبتدأ كل شيء في ذلك الصيف الحارق؛ عندما قدِمت هيلين لتقيم في كان، في عمارة بشارع أنتيب صحبة جون لوك، رفيقها الجديد. وكان هنالك ذلك الأفاق، ذلك الوضيع، الملقب بريد، بسبب شعره، واسمه الحقيقي ستيرن؛ ذلك المصور المزعوم، الذي يهوى التقاط الفتيات الصغيرات الساذجات، اللائي أخذن بيرڤينش في أحابيلهن. ذلك ما كانت كليمونص تريد أن تصدق، وأما في دخيلتها فقد كانت تعلم علم اليقين أن الشر شيء في غاية التعقيد، وأنه يأتي من مكان أبعد بكثير.

عندما كان الليل يخيم من قبلُ. عندما كان الليل يخيم كان بطلق حفى وتوفزًا. فكأنما يجري الإعداد لحفل. خاصة في الأيام الجميلة، من شتنبر، وأكتوبر، ونونبر. كان الهواء عليلًا وبارذا، وقد ازدانت الأسيجة بدودية أرجوانية مزهرة وبأطراف العشب تعلق ديدان لامعة. العلاجيم تنق في مجاري المياه. والأطفال يوقدون النار في شارع توليپان بقطع القصب والأغصان. فكانت علبة الثقاب تُتداول بين الأيدي. وحتى الصبية الصغار، كماريا، كانوا يقذفون إلى النار بالأغصان الجافة والأعشاب اليابسة والأوراق. فكانت الشرارات تدوّم، وترتفع في

السماء. فيطلق كارلوس كينتو عقيرته بالصياح، ويعدو بطول حائط الآجر، بشعره المشعث وشعاع أحمر ينعكس على وجهه. فكأنه طفل متوحش.

وبعد ذلك تنطلق الألعاب. لم تنس كليمونص. فقد كان الشارع لهم وحدهم. كانت الفتيات يتماسكن بالأيدي ويتقدمن بخطى موزونة، مشكلات حاجزا يمنع من المرور ومنشدات : «Amo,! ato, matarilerilero».

وعلى الجانب الآخر من الشارع كانت تأتلف مجموعة أولاد، ومعهم بعض الفتيات أيضا، بيطو، وإريبيرطو وإلكوردو، وباستورا. وأما شاقيلا فلم تكن تحب أن تكون إلى جانب الفتيات. فكانت تقف على مبعدة منهن، ومقربة من الأولاد، تنحني إلى الأمام، موسعة بين ذراعيها، شكسة كقرد عنكبوتي. فكانوا يرددون مجتمعين بصوت مرتفع : «Amo, ato,! matarilerilero». وتتقدم الفتيات :

«Que quiere Usted? matarilerilero?». ويرد الأولاد ساخرين : «Queremos dulce, matarilerilero?». وتتقدم الفتيات أكثر، ويصحن : «Y que mas pide? matarilerilero». فيرد الأولاد : «Nos dan un beso matarilerilero». وتتوقف الفتيات : «Ni un hueso! matarilerilero». ثم يتبادلون المواقع، وتعود كل مجموعة إلى طرفها من الشارع، وتأتلف مجموعة أخرى، ويعاودون اللعب من جديد.

وكان الكبار يجلسون أمام البيوت متفرجين، وكان الصياح ينطلق من جديد في الشارع المظلم، بكل ما في أصوات الأطفال من قوة ووضوح، كأنها نداء : «Amo, ato, matarilerilero!».

كذلك كان يحدث كل مساء، حتى الساعة الحادية عشرة وأحيانا إلى منتصف الليل. كان كل تفكير الفتيات في هذه

الأشياء وفي الليل، وفي الألعاب في الشارع، وفي النيران التي ستتوهج، وفي الصباح والضحك. وأما في بقية النهار فإن الشارع يترك للشاحنات التي تظل في غدو ورواح حتى تعاونية التلفيف «أناهواك». وفي الزوال، عندما تصير الشمس تشوي الأرض، كان السكارى يشربون أمام حانوت بائع الجعة، ثم ينامون في ظل الأكاسيا والعندم الهندي. كان الجو يعج ضوضاء، وتغلفه سحائب من غبار. وكانت قوافل البغال تنزل من السييرا، يسوطها هنود كاباكوارو، وتقطع أشداقها الأرسان، وهي تحمل الحطب إلى ورشة النشر. وكانت تسير في أثرها بعض الهنديات العجائز، متلفعات في خمرهن الزرقاء، حاملات ثمار لاقوكا، والمانجا، والإجاص الصغير الصلب كالخشب. وفي حر الظهيرة يصير كل شيء مختلفًا، حتى الكلاب؛ فهي تصير صفراء سغبة وخطرة. كانت تأتي من حي المظليين بطول القناة. فكان سكوبيدو يهرب ويلاحقها، وأحيانًا كانت تتألب عليه، وتكشر له عن أنيابها التي تسيل لعابًا فيلوذ منها هاربًا.

تفكر كليمونص في شارع توليپان؛ وفجأة إذا هي قد صارت بمنأى عن مكتب القضاء؛ فتخرج من جسدها وتلفي نفسها عادت إلى هناك، فوق كوكب آخر، كأنما في بستان كبير لم يكن يجدر بها ولا ببيرڤينش أن تبرحاه أبدًا.

وإذا خيم الليل، صار شارع توليپان مملكة للأطفال. فلا يعود بمقدور السيارات ولا الشاحنات أن تمر فيه. وكان الكبار يبتعدون عنه، فيلبثون عند عتبات بيوتهم، لا يكادون يفوهون بكلمة، ربما لكي يستذكروا. ويكون الأطفال قد عجلوا بأكل خبزهم الناعم، وشرب كؤوسهم من الحليب لكي يبكروا ما استطاعوا بالحضور إلى الشارع.

تعلمت كليمونص سريعًا. كانت في البداية تترك بيرڤينش في البيت برفقة هيلين وإدوارد پيرين، الذي كان يدخن السيجار. كانت بيرڤينش تخشى الشهب، فيجعلها صياح الأطفال تلتصق

بساقي أمها.

ثم لم تعد كليمونص تتذكر كيف وضعت بيرڤينش ذات مساء يدها الصغيرة في يدها، وسارتا معًا في الشارع، بمعية الفتيات الرافعات عقائرهن بالغناء. كان بيطو الراعي مغرمًا بكليمونص، فكان يرافقها حتى النيران. وكان بيطو بارعًا في صنع الكرات. فقد كان يمضغ بعض الورق ويضعه ليجف فوق ظهر طنجرة، ويشد إلى الكرة سلة يتخذها من علبة مصبرات، بعد أن يملأها بَرايات، أو مُشاقة مشبعة بالبنزين. ثم يوقد النار فترتفع تلك الكرة في الأفق الأسود المضاء بشعلة تلك السلة؛ تحكي رأسًا مقطوعة. لكنه لم يكن يُطير بالكرات في غير بعض الأماسي، كما في أماسي الأعياد والحفلات. فقد كانت تكلفه وقتًا طويلًا ولم تكن كلها تطير. ثم إن ذلك الأمر كان محظورًا. فذات ليلة سقطت إحدى تلك الكرات على أحد البيوت في حي سان بابلو، فأوشك يحترق لها السطح. لكن ما كان أجمل تلك الكرة الكادرة الصاعدة في الظلام. ولا تزال كليمونص تحس لقلبها خفقانًا شديدًا، وتحس بيد أختها تشد على يدها، فيما هي تنظر إلى تلك الكرة كيف تلتمع من فوق شارع توليپان.

(٢)

كان الجو حارًا ذلك الصيف في بروڤنس؛ حر ساحق ماحق. فلما اقترب شهر يوليوز رحلت بيرڤينش. وحتى إنها لم تتقدم لإجراء اختبار الباكالوريا، ما همّ؟ فلم تستعد للامتحانات، وكانت تعلم جيدًا أنها لا يمكنها أن تنجح. فقد أمضت السنة كلها تتسكع، خاصة مع «ريد» لورون في المشارب والعلب الليلية والاحتفالات، وقد يقتصران على التسكع في الشارع. كانت تشرب البيرة وتدخن. وفي الظهيرة تعود لتلاقي لورون قبالة مرأب مهجور في أسفل الهضبة. كان لورون يرفع ستار القماش فيتسللان إلى الداخل. المكان يضوع برائحة الشحم الأسود، ورائحة أخرى أقوى، كأنها رائحة التبن، أو رائحة العشب

المتخمر. فيتجانسان على الأرض مفترشين ملاءة.

كانت هنالك مجموعة من لاعبي الكرات الحديدية تتجمع في الزقاق. فإذا مرت بهم بيرڤينش جعلوا ينظرون إليها نظرة ساخرة، وربما تندروا عليها ببعض الملح، لكنها لم تكن لتهتم للأمر. وكان لورون يهم بمعاركتهم، فكان يشد على قبضتيه ويتوعد : «سأحطم لهم وجوههم بكراتهم!». ولاشك أنهم كانوا يتسلون أكثر أن ينظروا إليه يحكي ديكًا فتيًا غاضبًا.

كانت بيرڤينش تفعل الجنس من غير أن تتعرى، وظهرها إلى الأرض، ترضّه الحجارة برغم الغطاء. كانت تحب أن تحس بقلب لورون يخفق في حنجرته، وبعرقه يسيل متمهلًا على كتفيه، فتشربه من فمه ممتزجًا بريقه. فقد كان يؤجج فيها حرقة الجنس. كانت لحظات رائقة. يمكنها أن تسلو عن ساعات الضجر التي كانت تمر عليها في الثانوية، وعن الشجارات التي لا تنتهي مع أمها، وعن النظرة الحاقدة من جون لوك، والاحتقار الصامت من كليمونص. ذات يوم قالت لها أختها : «لن تفلحي بشيء في حياتك، فكل ما تعرفين أن تفعلي هو أن تستبدلي العشاق كما تستبدلين الأقمصة». فكانت بيرڤينش تفكر : هل يمكن للمرء حقًا أن يفعل شيئًا بحياته؟

وخلال شهر يوليوز كان تعرفها على ستيرن. لم يكن للورون يد في الأمر. فبيرڤينش هي التي أجابت عن إعلان في الصحيفة، أو ربما تكون تعرفت عليه بواسطة صاحبة لها. كان ستيرن في بحث شبه دائم عن فتاة جديدة ليلتقط لها صورًا، لأجل الموضة أو لأجل الإشهار. لم عمله يكن واضحًا. كان يستأجر مكتبًا واسعًا في وسط المدينة، في الطابق العلوي من مقهى. وقد كان استأجر هذا المكان قبله فنانون آخرون، ويقال إن نيقولى دي ستايل نفسه قد اشتغل هناك. إنه محل مصبوغ بكامله بالأبيض الهلامي، ومضاء بفتحات كبيرة مزججة تم تثخينها باستعمال اللفيفة، فهي تشيع ضوءًا غريبًا، باردًا وحزينًا،

حتى في عز الصيف.

في الموعد الأول طلبت بيرفينش إلى لورون أن يرافقها. فلم تكن تزيد عن السادسة عشرة. فحسبت أن مجيئها برفقة صديقها سيظهرها فوق سنها. لبث لورون معتقدًا أريكة، فيما ستيرن يتحدث وإياها، ويسجل بعض النقط في مفكرة. كان ستيرن شخصًا طويل القامة، على شيء من تخنث، في حوالي الثلاثين، بشعر أشقر وعينين زرقاوين، على شيء من جحوظ خلف نظارات طبية. كان بالنسبة إلى بيرفينش رجلًا كبير السن، شديد اختلاف عنها؛ من أولئك الأشخاص الذين تتحاشاهم على وجه العموم، لأنهم يبدون لها فاجرين عندما ينظرون إليها في الشارع. جعل ستيرن يرفع الكلفة معها في الحديث ولم تكن تستطيع إلا أن ترد عليه : «أنتم»، وأن تدعوه «سيدي». وعلى الطرف الآخر من المشغل جعل لورون يتشاغل بتصفح بعض مجلات الموضة. كان يدخن من غير أن يتكلف النظر ناحية بيرفينش.

وبعد ذلك أدخل ستيرن بيرفينش غرفةً للحمام، وما كانت في الحقيقة سوى ركن من المشغل مفصول عنه بحاجز، وفيه مرآة ومرحاض كيميائي. أعطاها بعض تبانات الاستحمام لأجل الصور. كانت بيرفينش طويلة وسمينة وقد صار لها نهدان كبيران وخصران عريضان؛ فكانت تبدو أكبر من سنها، ولذلك لم يستغرب ستيرن عندما أكدت له أنها في الثامنة عشرة. كانت التبانات صغيرة جدًا، فكانت تؤلمها، لكنها احتفظت مع ذلك بواحد منها وكان قطعة واحدة عليها تزاويق وبر الفهد. فلما خرجت من غرفة الحمام أشرق وجه ستيرن قليلًا. قال : «جيد، جيد جدًا استديري قليلًا». تراجع إلى الوراء، ودارت هي حول نفسها. ثم عادت للبس صندلها، فقد استفظعت كثيرًا أن تمشي حافية القدمين في مكان لا تعرفه. كانت تحس بنفسها سخيفة في ذلك التبان الضيق الصغير؛ فهو يعتصر فخذيها ويبرز نهديها

وبطنها، التي غدت مكورة قليلًا، أو ذلك كان على الأقل الشعور الذي خامرها أن ستيرن إذا نظر إلى بطنها فربما حسبها حاملًا. كان التبان يبرز كتفيها وعليهما خلفت حلقات رافعة النهدين علامات حمراء. لقد كان لبيرڤينش على الدوام جلد يحتفظ بالآثار. فكانت وهي صغيرة تتسلى كليمونص بالضغط على فخذها بيدها ثم تنظر إلى أثر الأصابع يرتسم كالوردة على جلدها. وأثناء ذلك كان ستيرن شديد التوتر؛ فهو يدور حول بيرڤينش ويطقطق بمصورته، وقد مال قليلًا إلى الأمام، وخصلة من شعره الدهني تتدلى على وجهه، فيعيدها متوترًا إلى الخلف وطقطقة مصورته تحدث صوتًا غريبًا ومثيرًا يتكرر مرتين أولًا اهتزاز مصم، ثم فرقعة حادة كأنه لقطاعة، كيتشا! كيتشا! رفع لورون رأسه لدى سماعه ذلك الضجيج، لكنه عاد ليكب على قراءة المجلات، وهو غائص في الأريكة. لم تكن ترى غير ساقيه الطويلتين المنتهيتين بحذاء رياضي وسحابة الدخان المتصاعد من سيجارته. كانت تفكر أن الأمر سريعًا ما ينتهي، لكن ستيرن قال لها : «الأمر ليس على ما يرام الأمر ليس على ما يرام البتة». خفض التبان بيسراه، فيما هو يمسك المصورة، وتراجع قليلًا، ثم لحس سبابته، وبطرف أصبعه بلّل رأس النهدين ليجعل حلمتيهما تنتصبان. ثم التقط مزيدًا من الصور، وقال : «معك أرغب بالأحرى في التقاط صور عارية، فهيأتك لا تتناسب والموضة». ثم انتهى من الصور، ولف الفيلم بتنهل، وذهبت بيرڤينش لترتدي ثيابها في غرفة الحمام الصغيرة. مسحت نهديها بورق المراحيض. فلما خرجت وجدت ستيرن قد استعاد سمته الجدي. لم يعد يتكلف مجرد النظر إليها وما حانت منه غير ابتسامة مقتضبة وهو يشد على يدها. «سأظهرها وأرى ما يكون. وسأهاتفك». قالت بيرڤينش إنها لا تملك هاتفًا، فأعطاها ستيرن بطاقته للزيارة : «وإذًا فأنت التي ستهاتفينني في الأسبوع المقبل». كان لورون قد صار خارجًا، فهو يتمطى

ويتثاءب من الملل. لم يتكلف مجرد النظر إلى ستيرن. «إذًا هل نجح الأمر؟». هزت بيرڤينش كتفيها. «إنه أفاق حقير، التقط صورًا لنهدي». بدا لورون غير مكترث. «وفي المقابل، لم يدفع لك شيئًا». لقد أدركت بيرڤينش حينها سخافة ذلك الوضع، لكنها أحست فجأة بالوحدة تكتسحها اكتساحًا.

ما كان أغربه من فتور؛ كان نفورًا يدب إليها متثاقلًا لكن قهارًا. كان لورون يلبث راقدًا إلى وقت متأخر، مضطجعًا على بطنه بالعرض فوق الحشية. كان الجو حارًا ورماديًا. بيرڤينش تتسمع في الخارج ضجيج السيارات التي تنساب في الشارع من غير توقف؛ الضجيج نفسه على الدوام كأنما هي سيارة واحدة تظل في غدو ورواح.

إلى أين كان يذهب كل أولئك الأناسي؟ كانت بيرڤينش تلمح من خلال شق في الستائر انعكاسات هياكل السيارات على السقف، وتلك كانت سينماها الصغيرة. بقع حمراء وزرقاء، ورمادية تركض بالمقلوب. فتحاول أن تتخيل الناس في تلك السيارات؛ فهي تتخيلهم صغارًا جدًا، وشفافين قليلًا، بأيد وأرجل دقيقة، ووجوه ذميوية، أشبه بأجنة.

لم تفه بشيء للورون، أو لأي شخص آخر، فالأمر يعينها وحدها. لكنها ذهبت مع ذلك إلى الصيدلية لتشتري الرائز. لم تفهم جيدًا كيف حدث الأمر. تتذكر بشكل غامض ذات ليلة من شهر يونيو، في وقت الامتحانات. كانت لا تزال تسكن رفقة هيلين وجون لوك. شربت ولورون حتى ثملا ودخنت بعض الجوانات داخل سيارته وذهبا حتى المستودع. ذلك كل شيء. لم تعد تتذكر جيدًا متى انتبهت إلى انقطاع الطمث عنها. فما أسهل ما كانت تنسى تلك الأشياء. تلك الأشياء الزهيدة في الحياة. فقد كانت تنسى أحيانًا أن تطعم أو تذهب إلى الحمام. ثم لا تلبث تلك الأشياء تهجم عليها حين لا تكون تتوقعها، بخشونة وألم. وذات صباح استيقظت وقلبها شديد خفقان،

والغثيان يعتصر حنجرتها مع ذلك اليقين، هنالك؛ في وسط بطنها، فوق الصرة قليلًا.

لكنها قررت مع ذلك أن تذهب لزيارة طبيب. فاختارت طبيبة نسائية توجد عيادتها أبعد ما في الإمكان؛ فهي تبعد بثلاثة أرباع الساعة بالحافلة، في الضاحية. إنها امرأة طويلة سمراء تشبه كليمونص في سن كبيرة، فسيماها تنم عن القسوة، مثل قاضية. فحصتها الطبيبة، ثم أزالت قفازيها، وعادت لتجلس خلف مكتبها. «هل أنت بالغة؟». قالتها كتأكيد أكثر مما كسؤال. هزت بيرڤينش رأسها. «هل اتخذت قرارا؟». دوّنت الطبيبة عنوان إحدى العيادات ورقم هاتفها. وعلى ورقة أخرى سجلت بعض الأدوية. «هذا لأجل مشكلتك». كانت بيرڤينش تنظر إليها من غير أن تفهم. ثم قالت لها بخشونة : «كانديدا أليكانس. يحسن بك أن تتخلصي منه في الحال».

مر الصيف على المدينة. بعد أن أخنى بحره عليها فأذاب الزفت، وأحرق الشجيرات في الأصص. في ذلك الوقت رحلت بيرڤينش عن بيت والدتها إلى غير رجعة. لم تحدث شجارات، لم يحدث شيء. إن هو إلا ملل طافح. كانت كليمونص في بوردو، قد أنهت دراسة القضاء وتنتظر تعيينها. وكانت هيلين تعمل في البيت؛ فهي تزوّق بعض الأباجورات لأجل دكان في المدينة العتيقة. كانت تشتغل كذلك بترميم بعض اللوحات. كان جون لوك سالڤاتور يرغب في إقامة مشغل للخزف في مكان ما من تلك الناحية. فقررا أن يرحلا على كل حال، ويذهبا للعيش في بيت الجدة لورو العتيق في كاناكوبي. وأما بيرڤينش فلم تكن ترغب في أن تتبعهما بأي حال. فحيثما أقاما سترافقهما رائحة الهيدروكربون القوية؛ رائحة أصحاب المرائب، لا رائحة الفنانين. وعندما صارت بيرڤينش تعود في وقت متأخر وعيناها محتقنتان بمفعول الجوانات لم تعد هيلين تفوه بشيء. إن ذلك الصمت هو الذي أصبح شيئا لا يطاق.

نزلت بيرڤينش ولورون بشقة في وسط المدينة. إنها شقة كبيرة وعتيقة، تعج بالفوضى. كان بعض أصدقاء لورون من أخلى لهما غرفة فيها. إنهم لصوص قرويون. كان بينهم شخص طويل حليق له اسم عائلي روسي، واسمه الشخصي ساشا. كان غريب الأطوار لباسه من الأسود حتى في الصيف، وكان شديد الشحوب. كان ينظر إلى بيرڤينش نظرة جانبية، وهو يحني طرفه إلى الأسفل قليلًا كما يفعل الملاكمون. إنه يبدو خطرًا، لكن ربما كان الأمر لا يزيد عن سمت يريد أن يتظاهر به. وكان ينصت إلى بكرات الأغاني النازية في مسجلته. كان يعيش مع ويلي، وهو أنتيلي شديد السواد، وعنصري مع ذلك. وهما شبان كانت هيلين تكرههما على الدوام.

كانت الشقة لا تخلو من الزوار في كل وقت وحين. فكان الرواق الطويل يزدحم بركام من الأغراض؛ معظمها آلات كهربائية، وأجهزة تلفاز، وأشرطة تلفزية، ومسجلات ستيريو، وكاميرات سكوب لا تزال جديدة في العلب، بل كان بين ذلك الركام أفران بمويجات، ومبردات للسفن. لم تكن بيرڤينش تطرح من أسئلة. كانت تسير بين الحواجز فالأمر لم يكن يزيد عندها عن لعبة.

لم تكن تلك الشقة تخلو من الزوار الطارئين. فبين الحين والآخر تنزل فيها بعض الفتيات، فيمكثن لليلة ثم ينصرفن. ثم لا يعاود بعضهن الظهور أبدًا. كن ينزلن في صالون يتفرجن على التلفاز، ويدخن، ويشربن بعض الكؤوس مع القرويين وهن في ضحك. إن مجرد النظر إليهن لا يدع مجالًا للتساؤل حول الطريقة التي يتدبرن بها عيشهن. لكنهن كن يملن إلى اللطف، وما كن يهتممن ببيرڤينش. كانت بينهن واحدة قدمت من أحد البلدان الشرقية، صربيا أو كرواتيا أو ما شابه. وأخرى تونسية تسمى زبيدة، فيلقبنها بزوبي.

كانت العمارة في حالة سيئة. في الطابق السفلي يقوم محل

للبقالة تسكنه سيدة من الهند الصنية، تقوم بإعداد المأكولات. ومعظم الشقق كانت مؤجرة لآسيويين، وفي الطابق الأخير غرف للخادمات، يشغلها بعض العمال المغاربيين وبعض المتنكرين.

ما كادت تمضي بضعة أسابيع حتى تعرفت بيرڤينش على معظم السكان. فقد كانت تعتبرهم مثل أسرتها الجديدة. لورون يعمل قليلًا في مقهى، لكن بيرڤينش تشك كثيرًا أنه يشارك القرويين بعض أعمال السطو، ومن المحتمل أن يكون شاركهم كحمَّال يساعدهم على تحميل العلب في شاحنتهم الصغيرة والصعود بها حتى الطابق العلوي. وقبل ذلك كان يمضي أوقات الظهيرة لدى بائع أثريات أرميني في وسط المدينة؛ فهو يجلس على كنبة يطالع المجلات الموسيقية والروايات البوليسية، ويرد على الهاتف عندما يغيب رب العمل. فلا يُفترض له أن يكون يقبض أجرًا جيدًا.

وفي أواخر غشت قال لورون لبيرڤينش : «لقد أخذت لك موعدًا مع مصورك». كان يدين بمال كثير للمقامرين خاصة لصديق ساشا، الذي يدعونه داكس. فعادت بيرڤينش أدراجها على طريق الأستوديو، وهي تعلم جيدًا ما كان ينتظر منها ستيرن.

(٢)

السيدة القاضية في مكتبها. الجو حار وثقيل، على الرغم من جهاز الحد من الرطوبة الذي يُسمع له هدير بقرب النافذة. كل شيء رمادي في الخارج، السماء، والشوارع والبحر. وحيطان المكتب هي الأخرى رمادية؛ فلم تُجدد لها الصباغة منذ سنين، وربما منذ قرون. المكتب يقوم في غرفة عالية، بسقف منتأ ذي صباغة خضراء باهتة، وفي زاوية منه زال عنه التلبيس، فكليمونص تميز فيها آثار لزخرف قديم مصبوغ على طريقة ألفريسكو، وباقة ورود مزينة بشريط. وما أن نزلت بهذا المكان،

واتخذت فيه مكتبها الأول بصفة القاضية، حتى أحبت هذه الغرفة العتيقة، بأبوابها العالية ذات التيجان، والواجهة ذات الأعمدة، والتلبيسات الخشبية المصبوغة، ونافذتيها ذاتي الزجاجيات القديمة التي يلتمع فيها الضوء كأنما يلتمع من خلال ستار من فقاقيع.

الملفات تتكوم بعلو حائط فوق الطاولة، فالسيدة القاضية ينتظرها عملٌ إلى آخر النهار. فلا يسعها أن تحس بحزّ الشمس على حيطان القصر.

تنفتح الباب، ويدخل ولد يحيط به شرطيان بزيهما الرسمي والأصفاد في معصميه.

لائحة طويلة ومملة من الأسئلة، قد جيء لمعظمها سلفًا بأجوبة في الأوراق المكونة للملف : الاسم العائلي والشخصي، وتاريخ الميلاد، والجنسية، ومكان الإقامة الأخير. الدراسة؟ مهنة الأب، ومهنة الأم. عنف، وسرقة سكوتر تحت التهديد بسكين. تقرير وشهادة الأخت الكبرى للضحية : شاب في الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة، من النوع المتوسطي. ما هو «النوع المتوسطي»؟ إيطالي، أم يوناني، أم مصري، أم إسرائيلي؟ هل تجد عند سالفادور دالي نوعًا متوسطيًا؟ كلا، على كل حال، إنك تفهم قصدي. لا، لا أفهم جيدًا. هل تعني أنه عربي؟ جزائري أو مغربي لافرق، سيدتي القاضية. تتفرس كليمونص في وجه الولد. وجه جميل، بملامح لا تزال طفولية رقيقة. عينان سوادوان جميلتان براقتان أشبه بعقيقتين. ندبة صغيرة في جانب الشفة السفلى إلى اليمين. وجسمه الطويل الذي لا يسعه قميصه الرياضي المحزّف قليلًا؛ فقد أمسك به الأعوان بشدة لدى خروجه من عربة المساجين، لعصيان يكون بدر منه.

قراءة تقرير الشرطة : «... طلبت منه عدة مرات النقود ودراجته السكوتر، فلما رفض تملكني الغضب، لأنني شربت

كثيرًا في ذلك المساء، فما عدت أقدر على التحكم في نفسي، فأخرجت سكيني، ووجهت إليه ضربة قوية من أسفل إلى أعلى في بطنه». الولد ذو نظرة صريحة، من غير نوايا سيئة. الأهداب الطويلة التي تنسدل على عينيه تضفي عليه مسحة رقيقة أشبه بالمخمل، وجاذبية طبيعية تجعل الشراسة لديه أشد سفورًا وحدة. «ثم لما سقط الضحية على الرصيف، وشرع يطلب النجدة، غرزت السكين مرتين في صدره؛ مكان القلب، وبعد أن مسحت السكين في قميصه التي شورت، أخذت السكوتر وذهبت عند والدي. وفي الطريق رميت بالسكين في مزبلة. أمضيت تلك الليلة عند والدي؛ حيث نمت، إلى أن جاءت الشرطة لتلقي عليّ القبض. لم أحاول الهرب. ولا أبديت مقاومة، ثم اعترفت في غير صعوبة بالأفعال، إلا من كوني قد فعلت ما فعلت تحت تأثير الكحول، لم أعد أتذكر التفاصيل بوضوح». ثم وقّع الظنين، ووقّع مفوض الشرطة.

لا تستطيع السيدة القاضية أن تنأى بفكرها عما ترى وتسمع. إن ذلك كله سيظل منحفرًا فيها، بالليل والنهار ويمكن لذلك كله أن يعود في كل حين، أشبه بحلم متواتر أو أشبه بذكرى. پول، وجاك، ومروان، وأكيري، كل واحد بقصه وقضيضه، وكل واحد بكلماته ونظرته. خارجون من الليل، من العدم الكريه، ملوثون بالدم والمني والموت حاملون لمصائرهم كعرق رديء على جلودهم، مبهورون بضوء العدالة الساطع، عاجزون عن الكلام، يرددون ما يلقّنون، ويتعلقون بنظرة من ينظر إليهم، أكان شرطيًا أو مفوضًا قضائيًا، أو محاميًا، باحثون عن قشة يستمسكون بها حتى لا يغرقوا، لكي ينقذوا أنفسهم من الغرق، مرهقون بلغة الخبراء والمساعدات الاجتماعيات والأطباء العقليين والمحامين المعيّنين من قبل المحكمة. يُنتشلون للحظة من الظلمة، ويُقتادون قدامها. قدّام السيدة قاضية الأطفال، ثم يُردون إلى زنازنهم الانفرادية مكبّلين مصفّدين،

مطأطئي الرؤوس، خجلين يردون إلى الصمت.

لم تنس المرة الأولى، وهي بعد طالبة. وردة، المومس منذ كانت في الخامسة عشرة، المتخدرة، التي تعرضت للضرب من عشيرها، وأفسدت سحنتها الليالي التي أمضتها في السجن. كانت بلباسها الرياضي الكستنائي، وحذائها الأبيض الجديد، وشعرها المجعد القصير، وأذنيها المثقوبتين اللتين أزالوا عنهما قرطيهما الذهبيين لأجل الأمن، وكذلك أخذوا منها سلسلتها اليدوية الحاملة لاسمها واسم عشيقها وعقدها المزين بحجر كريم، فما عاد لها غير جسدها الضعيف النحيل، المكوم فوق الكرسي، أمام المكتب الخشبي الكبير. وقد لبثت الشرطية واقفة، وببدها الأصفاد مفتوحة، وهي متراجعة قليلًا بإزاء الباب، على أهبة التدخل عند اللزوم.

«... ضرب لي المدعو إريك موعدًا، فذهبنا برفقة المجموعة بالسيارة، حتى جئنا إلى أعلى الهضبة، من الحي حيث محرق الأموات... في موضع بعيد عن الطريق. وعندما وصل بسيارته لم يلحظ السيارات الأخرى، بسبب الأضواء التي كانوا قد أطفأوها. فسرت أنا حتى السيارة وكأني لوحدي. سألني هل جئت لوحدي، فقلت إن الذي جاء بي قد انصرف لأنه لم يشأ أن يكون شاهدًا. فشدني من شعري، ولطمني، فكسر لي خاتمه سنًا من أسناني الأمامية. ثم سحبني نحو الحرجة، وقال إنه سيقتلني. وعندما رأى أولئك الذين كانوا مع صديقي جيرار ما حدث أوقدوا المصابيح، وخرجوا من السيارة، وجعلوا يركضون وسرعان ما شرعوا يطلقون النار. وأراد المدعو إريك أن يتناول مسدسه، لكن رصاصة عاجلته في بطنه، فصرخ وجثا على ركبتيه. ثم أطلق الآخرون عليه عدة رصاصات في رأسه فلما سقط إلى الخلف رأيت وجهه قد انسحق انسحاقًا. كان ميتًا في تلك اللحظة، لكن صديقي جيرار وبعض أولئك الآخرين أمعنوا في إطلاق النار عليه، إلى أن نفد ما بأيديهم من رصاص. ثم

صبوا عليه البنزين وحاولوا أن يضرموا فيه النار، لكن تعذر عليهم إشعالها. فرحلت على متن السيارة رفقة صديقي جيرار. ولم أعرف بعد شيئًا عن الموضوع».

ذهبت كليمونص إلى المحاكمة، لا لتحكم، بل لحاجتها أن تعرف ما سيحدث. كانت وردة في قفص المتهمين. كانت شديدة النحافة، ووجهها شديد الشحوب، كوجه فتاة مريضة. كانت، وهي ذات التسع عشرة، تبدو كأنها لا تزال في الخامسة عشرة، قد لبست كسوة رمادية أعدتها لها أمها لأجل المحاكمة. وإلى جوارها عصابة البائسين، القوادين الصغار، المتراوحة أعمارهم بين العشرين والثلاثين. كانوا يقفون مطأطئي الرؤوس ويتحاشون النظر ناحية هيأة المحكمة. ومحامي الطرف المدني الذي يرغي ويزبد ويتوعد، ويزعق ويراني ويصانع. ومحامي وردة الذي ليس هو أيضًا من عينت لها المحكمة، بل محام آخر أدت له الأسرة أتعابه؛ صوته رقيق كوسيقى كمان، وكذلك هي كلماته رقيقة؛ عساه يستميل هيأة المحكمة، فيحصل على تخفيف للعقوبة. فهو يتحدث عن طفولة الصبية، وعن الأحياء الحارة في مارسيليا، وعن الأبوين اللذين استقالا فلم يعد وجود لضوابط، ولا وجود لقيم، وحتى الدين بات عاجزًا. يتحدث عن تحكّم الرجال، وتسلطهم، واقتناعهم بفعل الشر، وأن الصغيرة في الحقيقة لم يسبق لها أن خُيرت في شيء، ولا تجاسرت على فعل شيء، فما كانت إلا دمية من لحم بين أيديهم. وبعد ذلك كله جاء الحكم، فكان ثقيلًا وفاجعًا، وماحقًا؛ خمس عشرة سنة سجنًا لوردة، وعشرون سنة للقتلة، وعشر سنوات للآخرين. في البداية خيم الصمت على المحكمة، ثم دوّت صرخة وردة حين جاءوا لاقتيادها. جعلت تتلفّت، فهي لم تفهم في حينه، والآن تدرك أن كل شيء قد انتهى. لم تنبس بكلمة. لقد فعلت كل ما قيل لها، بل إنها بكت عندما كان السيد المحامي يتحدث عنها بصفة الصبية. وفجأة تلتفت، وتطلق صرخة حادة صرخة

ترددت أصداؤها في القاعة الكبيرة لمحكمة الجنايات واخترقت كل من ضمت من أشخاص، أشبه بقشعريرة.

إن هذا هو ما لا تزال تفكر فيه كليمونص، وهي لوحدها في مكتبها الكبير، خلف أكوام الملفات المشدودة برباط أشبه بسلسلة طويلة لا تفتأ تدور، بالوجوه نفسها، والصور نفسها، والكلمات نفسها، والعقوبات نفسها.

ستيفان، خمس سنوات سجنًا، كريستوفر خمس سنوات سرقة، وكسر بالليل، وإخفاء للأشياء المسروقة، وحمل للسلاح بطريقة غير قانونية، وعنف ضد السلطة، وجنحة الفرار. سيلفي وريتا، وياسمين، وباربارا، وميلودي، ضرب وجرح، وسرقة من عربة، وحيازة مخدرات، وتهديدات بالقتل، ومحاولة ابتزاز، وسرقة باستعمال العنف. عند رحيل بيرڤينش، كان تخرج كليمونص من مدرسة القضاء. لم تكن تعلم أنها قد تشتغل ذات يوم بهذا العمل؛ فلم يدر في خلدها قط ما يمكن أن يكون ذلك العمل، قاضية أطفال. أن تكون على الجانب الآخر من الحاجز، إلى جانب أولئك الذين يسجنون، ويحبسون في المراكز. إلى جانب أولئك الذين ينظرون، ويقررون، ويعاقبون. فكأنما قيل لها ذات يوم ستكونين مفوضة للشرطة. ثم تحقق ما توقعوا كأنما على الرغم منها. لأنها كانت موهوبة في الامتحانات وكانت توجد مناصب شاغرة.

حصلت كليمونص على بعض الأخبار عن بيرڤينش من أمها. كانت هيلين في غاية السعادة وهي تعيش في البيت الذي في كاناكوبي، برفقة جون لوك سالڤاتور. عادت للاشتغال بالرسم، وكان هو يتدبر قوته بما يعود عليه من صناعة الخزف. كانا بعيدين عن كل شيء، في مكان وسط البادية. بل كان لديهما فرس يؤجرانها في الصيف للمتنزهين في مضمار بذلك المكان. لم تكن تشغلهما هموم كثيرة. كانت هيلين مستهترة، كشأنها دائمًا؛ فقد كانت هي الفتاة الصغيرة، وكانت كليمونص هي

الكبيرة. كانت تقول عن بيرڤينش، في شيء من الفكاهة العفوية : «أوه، فلتعلمي أنها تعيش حياتها. ذلك ما أرادت. لقد طلبت أن أزورها في المكان حيث تعيش مع صديقها، فقلت لها إن بإمكانها أن تسكن في كاناكوبي وإيانا، ويمكنها أن تجد عملًا في المدينة فتعود إلى البيت كل مساء، لكن قالت إنها لا تحتاج شيئًا. ماذا تريدينني أن أفعل؟ لا يمكنني أن أكرهها». وكررت تلك الجملة الخرقاء : «إن لها حياتها ولي حياتي».

حصلت كليمونص على عنوان بيرڤينش. فالظاهر أنها لم يكن لديها هاتف. أو أنها لم تعد ترغب أن يهاتفها أحد.

وذات نهاية أسبوع طويلة من شهر شتنبر، استقلت كليمونص القطار إلى مارسيليا. وعندما قرعت الباب جاء رجل قروي ليفتحها. كان أنتيليا طويل القامة، يرتدي تبانًا وعلى كتفه وشم بارز، ولربما هي ندبة. لعل اسمه كان ويلي. عندما قالت إنها أخت بيرڤينش، تركها تمر. كانت بيرڤينش في الغرفة التي في الداخل. كانت قد استيقظت للتو. كانت ملامحها منتفخة، وقميصها التي شورت مندعكًا، وشعرها متسخًا. وجدت كليمونص صعوبة في التعرف عليها؛ فهي لم ترها من حوالي سنتين. كانت تنبعث من بيرڤينش رائحة التبغ والكحول.

تحدثتا في شتى الأمور، لكن لم يعد لديهما ما تتحادثان فيه. فما عاد يجمع بينهما شيء.

كانت تلوح على بيرڤينش سيماء العناد؛ فقد كانت في حالة دفاع. لم تعد تضحك للمُلَح القديمة، حتى عندما قرعت كليمونص الباب، وردت على السؤال : «من هناك؟» بقولها : «? El viejo Ines». وبعد ذلك :

المكسيك، جاكونا، كانت أشياء بعيدة. كانت أشباحًا. نسيت بيرڤينش حتى أسماء الأطفال في شارع توليبان؛ بيطو وروزاليا، وبينا، وشافيلا، ومايبيرا. الذكرى الوحيدة التي بعثت فيها ابتسامة كانت للكلب الكبير سكوبيدو، وطريقته في

تعقبهما من غير ضجيج، وكيف كان يقترب بخطمه المبلول من ربلاتهن ليجعلهن يصرخن من الفزع. والغوافة الكبيرة التي كن يرتقينها، ليقذفن إليه بالثمار، وهن متعلقات بالغصن الذي يشرف على الشارع. كانت الكلاب مصدر إزعاج في جاكونا. فمنها التي تقعي إلى حائط البيت، فتظل تنبح في وجه القمر طوال الليل، فيطردها بيرين بقذفها بالحجارة أو بسطول الماء. ومنها التي تتعارك بوحشية في الشارع، وهي تطلق عواءات رهيبة. ومنها التي تظل تتسافد بلا انقطاع، متلاصقات بمؤخراتها كالعناكب العظيمة، وهي تعرج بقوائمها الثماني، فتبعث الفزع في نفس بيرڤينش. وذات يوم، وفيما كانت عائدة بطول القناة بجانب حي المظليين، إذ هاجمها كلب، بعد أن تعقبها متكتفا، فكشر عن أنيابه، وامتلأ خطمه لعابًا، لكن طردته كليمونص عنها برميه بالحجارة. في تلك الليلة، سمعت فرقعات البنادق في الحي، وفي اليوم الذي بعدُ علمت من شيتا أن الصيادين قتلوا جميع الكلاب المسعورة.

كانت كليمونص تنظر إلى أختها، فتشعر في قلبها بانقباض. لم تكن تقدر أن تفعل لها شيئًا. لقد فات الأوان وصارت عنها بعيدة، وبات الأمر مختلفًا كثيرًا. لقد درست القانون، وأجرت المباريات، لكنها لم تكن تعرف أن تمنع أختها من السقوط.

حاولت أن تطرح بعض الأسئلة، وأن تعرف ماذا يعمل لورون، وهل سيغير طريقته في العيش. لكنها لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من أسلوب الاستنطاق.

عادت بيرڤينش للانطواء على نفسها. فهي تكره كل ما تمثل كليمونص: الوظيفة الاجتماعية، والمسؤوليات والسلطة. وبعد هنيهة قالت لها كليمونص في رعونة إنها يمكنها أن تساعدها، وتقرضها نقودًا لكي ترحل عن ذلك الكوخ القذر، وتنأى عن أولئك الأشخاص الفظيعين. فردت كليمونص بفظاظة. كانت عيناها الزرقاوان تلتمعان بشرارة قاسية، وكان وجهها منقبضًا

في كل جوانبه، حتى لترتسم تجاعيد صغيرة من حول فمها وأنفها وجبينها. كانت تتكلم بصوت غريب، خفيض وأبح، لا قِبَل لكليمونص به. «أنت التي ستساعدينني، بالطبع، فأنت التي تعرفين كل شيء عن حياتي، أنت التي تحكمين على كل شيء وتقررين في كل شيء، وأما أنا ففي العاشرة، وينبغي أن أصغي إليك، أنت وسلطانك الصغير على الناس. يُخيل إليك أنك تعرفين عني بعض الأمور، لكنك لا تعرفين شيئًا عن حياتي، إنك تودين حقًا أن تعرفي، لكنك لا تعرفين عني شيئًا، لاحاجة بي إلى نصائحك البائسة، فلست في حاجة إليها، ولست في حاجة إليك، فلتخرجي من حياتي ولتنسيني». كان وجهها متكدرًا من الغضب. لم تجبها كليمونص بشيء، فعادت إلى النوم. كانت الفوضى تعم المكان، مع تلك الحشية البالية على الأرض، وليس عليها غير شرشف مكور. وعندما قعدت لتشعل سيجارة، انفرج قميصها التي شيرت، ورأت كليمونص صدرها، وبقعًا حمراء على نهديها أشبه بحروق. رجفت، لأنها كانت تتذكر جلد بيرڤينش من قبل، عندما كانتا تستحمان معًا في حوض توليپان؛ لم يكن مسبحًا، بل مجرد بركة كان الأطفال يسبحون فيها وسط الضفادع وعقارب الماء. رائحة جلد بيرڤينش، رائحة عشب بليل، ندي وناعم. مضى وقت طويل جدًا دون أن تفكر في الأمر، وهذا يزيدها كرهًا للحاضر.

غادرت الشقة على عجل. كانت تشعر بانقباض، ربما بسبب تلك الذكرى، أو ربما هي رائحة المرهوانة التي كانت تملأ عليها ثيابها. واستقلت قطار المساء وجهتها بوردو.

(٤)

تمت المبادلة في الليل فوق هضبة. إنه مكان شديد الغرابة؛ بعيد عن كل شيء، وإن تكن المدينة قريبة جدًا حتى ليميز الناظر منها البقعة الحليبية التي تكونها الأضواء في السماء. اندفعا في البداية في جوف واد صغير، على الطريق المتعرجة،

ثم خلال البيوت الإسمنتية العالقة بجوانب المنحدر، تحكي أعشاش زنابير. ثم صعدا خلال الغابات؛ فالجو هنالك شديد الرطوبة، بحيث كانا يخترقان سحبًا متثاقلة تجثم فوق أغصان الصنوبرات في الأجمات.

كان الجو حارًا جدًا في تلك الليلة، والجرادات تصدر أصواتًا مصمة، والعلاجيم تلوذ بالأودية الصغيرة. بيرڤينش تسمعها بوضوح. ربما تفكر في الليالي التي أمضتها من قبلُ هنالك تحت الناموسية، وكل تلك الطقطقات، وكل تلك الضجات المخنوقة التي كانت تملؤها خوفًا وهلعًا. وأما الآن فما عادت تخشى الليل.

لورون يقود السيارة بخشونة، فيسمع للعجلات صرير في المنعرجات. تقول له : «لماذا تسير بكل هذه السرعة؟ إنك تسبب لي الغثيان، فتمهّل». لكنه لا ينصت. سحنته عابسة ولا ينظر إلى بيرڤينش، وإلا فيرمقها بنظرة جانبية، كنظرة كلب، فقزحيتاه الصفراءوان عليهما مسحة حيوانية.

وقبل أن يغادرا ليتجولا، تجانسا فوق الحشيات في الغرفة الخانقة. كانت تشعر بحال جيدة، فهي تلتصق به، حذعه رقيق، وقد استمتعت بعقد ذراعيها حوله، وفي شده إليها بفخذيها، حتى لتوشك تخنقه. لكن ذلك لم يضحكه. تحلل من بين ذراعي بيرڤينش، وجعل يتنفس بسرعة، وكان ظهره متعرقًا. «ماذا بك؟». حاولت أن تقرأ في عيني لورون، لكن وجهه كان قاسيًا ومتوترًا، أشبه بقناع. إنها تتذكر التجاعيد على جبهته، وعرقًا على هيأة ٧ منتفخًا عند صدغه. وذلك التعبير الغريب؛ فقد كانت عيناه كأنما تطلان من خلال ثقبين في الجلد المقوى لوجهه. كان ثملًا؛ فقد أفرط في الشرب وفي التدخين. أدارها كأنما لم يعد يريد لها أن تراه، وكان قضيبه الصلب حربة حارقة، تشع لذة وألمًا متمتزجين. وكانت بيرڤينش في خضم دوامة تجذبها نحو محورها في حلم تهوي فيه كل ليلة إلى لاقرارة،

بعد كل تلك النهارات التي كانت تصرفها في الشرب، في التدخين والشرب والنوم. وفي الانتظار. والأناشيد النازية في بكرات ساشا وموسيقى الراستا لويلي الأنتيلي، وأصوات المهمشين المتصادية في الشقة، تطرق الرأس طرقًا، وتلك الظلال التي تتجول في الليل لتطارد العرب والسود، وقرقعة السلاسل، والكراهية الشبيهة بمخدر، ورائحة البيرة والدخان الذي كان يملأ بسحبه الغرف. كانت الزوبعة تفصلها عن كل ما كانت قد عرفت. وذات مساء نظر إليها ساشا بعينيه الشاحبتين، وقال لها تلك الكلمات التي أرعبتها كأنها سوء طالع : «ينبغي أن تموتي لكي تولدي من جديد».

ناما حتى المساء، لأن الجو كان شديد الحر. ومن خلال المصاريع المغلقة كانت بيرڤينش تنصت إلى انزلاقات السيارات في الشارع. لكن الضوء لم يكن يلتمع على هياكل العربات، وتوقفت ألعابه الضوئية على السقف. وفي لحظة فكرت في أختها، وربما حدثت نفسها : «كان يفترض بي أن أهاتفها». إن ما منعها أنها كانت قد حاولت في مطلع غشت؛ كانت تريد أن تحدثها عن الطفل في بطنها، لكن تركوها في الحي U تنتظر لعشرين دقيقة قبل أن يقولوا لها : «الآنسة لاورو ليست في غرفتها، هل تودين أن تتركي لها رسالة؟». كانت تكره على الدوام تلك الأشياء كلها؛ تلك الأسوار، وتلك المجاوبات، ووكالات الأسفار، والمساميع الصحية؛ فصفقت سماعة الهاتف، وأدت ثمن المكالمة للحانة.

السقطة خفت وتيرتها الآن قليلًا؛ لم تستكره أن تحوّم وهي على ظهرها، عارية فوق الحشيات، وتصيخ السمع إلى ضجيج الشارع، والتنفس الهادئ للصبي النائم على بطنه بالقرب منها.

بلغت السيارة أعلى الهضبة، عند تقاطع مع سبيل ترابية تخترق غابة الصنوبر. لا تطرح بيرڤينش من أسئلة. إنها لا تزال دائخة من تلك السقطة، أو تكون أفرطت في التدخين وفي

الشرب. لم يعد يبدو على لورون ما يوحي بأنه ثمل. إنه طويل، ومنزعج، ومتوتر، يتحرك في غير انتظام، ولا تزال تلك التجعيدة تظهر على جبينه، وذلك العرق المنتفخ عند ضدغيه، وعيناه اللتان تنظران من خلال ثقبين في قناع.

توقف لورون بسيارته وسط المضاءة. عطّل المحرك وهو لما يتوقف بعد، فاهتز اهتزازات قبل أن يتوقف. المضاءة مظلمة، لكن الرؤية ممكنة بفعل أشعة المدينة، وبقعة كروية تتلاشى في السماء من فوق رؤوس الأشجار. وفي المقابل فالمكان ههنا يضج بطنين الجرادات. الجو حار رطيب، تمازجه رائحة الراتنج؛ فهو أقرب إلى الأماكن الرومنسية، لكن لا توجد نجمة في السماء.

وفجأة خيّم الصمت. فقد انزعجت الجرادات من شيء ما فخرست. يترجل لورون ويترك الباب مفتوحة، ويمشي إلى وسط المضاءة. بيرفينش تحس بدقات قلبها بطيئة جدًا. إنها لا تزال في خضم الدوامة، لكن على الضفاف إذا صح التعبير، مأخوذة بحركة خفيفة جدًا، لا تكاد تقتلع بضع ذرارات من العشب من الضفاف. تفكر : «لكن ماذا يحدث لي؟ وما الذي سيحدث الآن؟». ربما تتذكر العبارة التي فاه بها ساشا، وأنها تخشى أن تموت.

لم تقل شيئًا ولم تنبس ببنت شفة. إنها تنتظر وهي قاعدة في مقدّم السيارة، مكومة على نفسها ويداها على بطنها.

عندما وصلا، تعرفت عليهما في الحال. كان هنالك ويلي والمسمى داكس. لم يكن لورون معهما. داكس قصير ونحيف، يرتدي قميصًا رياضيًا جلديًا أسود. والأنتيلي يقف وراءه، ساعداها على النزول بتمهل، بتمهل شديد. داكس يقول : «سنعتني بك الآن جيدًا، لن يمسك مكروه». بيرفينش ترتعد بشدة، حتى إنها لا تقوى على المشي فيحملها داكس وويلي. تكاد الزوبعة تتوقف الآن، فغابة الصنوبر تدور برمتها، وتتقصف

وتتطاير، فتشعر بيرڤينش بالغثيان في حنجرتها. وعلى الرغم من الحر الخانق، حتى لا تهب نسمة، تشعر بيرڤينش ببرودة رهيبة تكتسح أعضاءها، ولربما لهذا السبب كانت ترتعد وتتصادم ركبتاها.

وفجأة عادت ضجة الجرادات لتنطلق من جديد. فكان صياحها الحاد يتقاطع من حول المضاءة كلها، فينسج لحمة لامرئية، وتوشك بيرڤينش تستعيد لسماعها سكينتها. الآن هي تضطجع على بساط الإبر، وتحس بجسد داكس يضغط عليها ويخترقها، فكأنما يخترق ثيابها وجلدها، وينفذ إلى أعماقها. فتصرّ على أسنانها درءًا للصراخ. تفكر : «إن صرخت فسيقتلني». تفكر في الأمر بهدوء، ذلك شيء بديهي. لقد ذهب بها لورون حيث أراد، إلى تلك الغابة الصنوبرية، ثم خانها وباعها. لقد استعملها كما يستعمل حيوانًا. تفكر في الأمر من غير استفظاع، فقد صارت اليوم في قرارة المغارة، وحيدة في مكان لن يأتيها فيه أحد أبدًا تلك المضاءة وسط أشجار الصنوبر، عند نهاية كل الطرق.

عندما انتهى كل شيء، ابتعد الرجلان قليلًا، وأشعلا سيجارتيهما. أعادت بيرڤينش ترتيب ثيابها، فكانت تتمايل وسط المضاءة؛ لم تعد ترى أحدًا. تتقدم كالعمياء ويداها ممدودتان، تتعثر بالجذور وبالحجارة. تسمع ضجة محرك يُشغَّل وترى أضواء سيارة. إن الأنتيلي من يتولى القيادة وهو لا يكلف نفسه مجرد النظر إليها. تقعد في الخلف بجوار داكس. فيجعل ذراعه، في لامبالاة، من حول عنقها، وهو لا يتوقف عن التدخين. سيارة داكس ألمانية ضخمة، تنبعث منها رائحة الجلد كأنها سيارة مسروقة. يمرّر داكس سيجارته إلى بيرڤينش، فتسفط نفثة في التذاذ. السيارة تمضي متئدة على الطريق المتعرجة؛ حيث كان لورون قد جعل عجلاتها تصرّ. وبعد حين لمحت بيرڤينش، عند منعطف إلى اليسار المدينة الشاسعة،

أشبه ببحيرة من الضوء، ثم حجبتها الهضبة من جديد.

(٥)

في أي وقت أضاعت كل شيء؟ الآن، في حر هذه الأوقات من أواخر الصيف، التي تسحق كل شيء في كاناكوبي، تجهد هيلين عساها تفهم. لقد طردت إدوارد پيرين من حياتها، بالحزم نفسه الذي تبعته به إلى آخر الدنيا. إن ما أحبت فيه، في بادئ الأمر، كان ذلك الطبيب، الذي يتعهد الفقراء، أو المبشر الذي يعمل في المنظمة العالمية للصحة، ويتلقى التمويل من جمعية خيرية كندية ليسعف المحرومين. وقبل أن يُرسل إلى هذا الركن المجهول من المكسيك، كان قد عمل في إفريقيا الوسطى، وفي مدغشقر. وعندما تعرفت عليه هيلين، ذات صيف في إكس، على سطيحة أحد المقاهي، أعجبت بهيأته؛ بقامته الطويلة وسواده الفاحم ويديه العريضتين براحتيهما الشاحبتين وتلك المسحة الجدية التي ينظر بها إليها. ظلا يتلاقيان طوال شهر غشت فقد كان يسكن حجرة صغيرة مؤثثة، كأنها مسكن طلابي وكانت هيلين تشعر كأنها قد عادت تعيش سنوات حياتها من غير هموم، قبل زواجها الفاشل مع ڤانسن لاورو. كانت تشعر كأنها عادت عاشقة من جديد. ثم لم تلبث أن وجدت نفسها مرة أخرى وحيدة. كانت الجدة لاورو بانتظارهما في كاناكوبي، وهي تهيء لدخول فتيات المدرسة الجماعية إلى الفصول. ولذلك، فذات يوم من شهر شتنبر، ومن غير تفكير، ولأن الطقس في بروڤنس كان قد أصبح باردًا ورطبًا أو ربما لأنها كانت تنتظر تغيرًا منذ وقت طويل، اقترضت نقودًا من بعض الصديقات، واشترت بطاقة سفر بالطائرة لأجلها وكليمونص. فستمكث بيرڤينش في كاناكوبي لدى جدتها، إلى حين ينضبط كل شيء. كان إدوارد بانتظارهما في مكسيكو. فاستقلتا حافلة تريس إسترياس دي أورو في محطة تيرمينال في الشمال، وفي الصباح الباكر ترجلتا منهكتين في زامورا. وقد جعلهما إدوارد،

ربما للترفيه عليهما يقطعان الطريق المعبدة حتى قرية جاكونا على متن عربة يجرها حصان.

كان إدوارد بيرين قد استأجر ذلك البيت الإسمنتي الصغير في شارع توليبان، وكان يعمل كل يوم إلى المساء في مستوصف وسط القرية بجوار المقبرة.

كانت حياة جديدة. فقد لزم هيلين أن تتعلم كل شيء لا أن تقتصر على التحدث بالإسبانية بلكنة الميشواكان الفاترة بل تعلمت كذلك الشتائم والدعابات، وما ينبغي مراعاته من الأعراف، وما يحسن عدم التفوه به من الأشياء، والعادات الحسنة، والأخرى السيئة، وربط العلاقات. كان لها جيران وأصدقاء، وكان أهل الحي يطرقون باب مطبخها صباحا ليثرثروا وإياها، وليقترضوا منها ملحا أو دقيقًا، أو ليجيئوها ببعض الهدايا وبالبيض والعسل والخبز الناعم. فقد كانت زوجة الطبيب.

وبعد ستة أشهر استقدمت هيلين الصغيرةَ بيرڤينش. فقد سافرت لوحدها وبعنقها لافتة، وتقيأت وهي على متن الطائرة، فكانت شديدة الشحوب. وكانت كليمونص قد رفضت منذ البداية أن تتغرب. كانت تبين عن عداء لإدوارد بيرين صريح في البداية، فلما صارت هيلين تعنفها أصبح عداؤها له متسترًا. فلما جاءت بيرڤينش تحسنت الأمور قليلًا، لكن كليمونص لم تلبث أن جرت أختها إلى عصبتها. فكانتا توشوشان لبعضهما، وما كانتا تكلمان إدوارد بشيء ولو كلمهما. فقد كانتا تعاملانه كأنما هو العدو. وهما وإن تكونا لم تريا أباهما قط، فلقد انحازتا إليه.

لزم إبدال كليمونص مدرسة فأخرى وثالثة. ثم آل بها الأمر في الأخير إلى الاندماج. وفي فصل الصيف تنطلق الألعاب في الشارع، فتندفع كليمونص وسط الآخرين. تعلمت كيف تتكلم وكيف تلعب. واكتشفت حرية لم يسبق لها أن عرفتها إلى ذلك

الحين. فكانت إذا عادت من المدرسة في الساعة الثانية بعد الزوال، تخلع عنها بذلتها، وترتدي سروالها المبقع، والتي شورت المتسخ، وحذاءها الرياضي ثم تنطلق تعدو في شوارع القرية لا تخشى السيارات ولا الشاحنات. كانت تمضي لاتستكشاف كل شيء وصولًا إلى الأحياء البائسة على ضفة القناة؛ هنالك حيث كان يعيش من يسمون بالمظليين؛ إذ يُقال إن بعض المحامين عديمي الذمة هم من ألقى بهم في هذا المكان، ليحتلوا هذه الأراضي ويجبروا أصحابها على بيعها.

وكانت هيلين كذلك تذهب إلى كل الأمكنة. فقد عادت تنهمك في الرسم والنحت، وجعلت تشتري علبًا كبيرة من تعاونية التلفيف «أناهواك»، فترسم صورًا شخصية لأهل الحي، وتجعل لها خلفيات من حقول الذرة، وقصب السكر أو ثمار الغوافة الكبيرة على الجانب الآخر من الشارع. كانت مولعة بالهنديات، وجوههن وأساريرهن الرقيقة وشعورهن السوداء اللامعة. وظلت تحافظ على معظم الصور الشخصية، ثم عادت لتعيش وإياها في بروفنس فهي حراسها، وأبواها، وكل أصدقائها. رسمت صورًا لآدم وحواء، وللطفلين الصغيرين في الأسمال، اللذين كانا يأتيان لتسوّل الخبز، أو التقاط ثمار الغوافة، وكذلك للهندية العجوز، التي كان الناس ينادونها ساخرين ماريكينا، والتي كانت تطرق أبواب البيوت لتبيعها التراب، والأعشاب المغلية، وأقداح العسل الحزيف يخالطه رماد. وفي الرسوم يظهر كذلك أطفال الشارع؛ بينا، وشافيلا بشعرها الأشعث وكارلوس، وبيطو، وروزالبا لاغويرا، ومايرا.

كانت هنالك شيتا. إنها فتاة صغيرة، نحيفة وباهتة، كانت تسكن وأسرتها براكة من براكات المظليين، على ضفة القناة.اسمها الحقيقي خوانا، لكن صبية الشارع كانوا يسخرون منها فيلقبونها باسم المرأة القبيحة في تلك السلسلة التلفزية.فكانت تلوذ بالصمت.

لم يتفق لهيلين قط أن رسمت صورة لها. ليس لأن الأمر لم يخطر ببالها، أو لم تجد رغبة فيه، بل لأن هذه الطفلة كانت تطوي نفسها على سر. كانت تحمل في نفسها شيئًا أخرس متفلتًا وقصيًا. ثم إنها لم تكن ترغب في أن تتركز عليها الأنظار فوق ما يجب، فكانت تخفي وجهها بيديها فلم تكن تريد أن يراها الناس وهي تطعم. كانت باهتة وعنيدة وغامضة؛ أشبه بحيوان. ولربما لهذا السبب أطلق عليها أطفال الشارع ذلك اللقب. كانت في السابعة عشرة لكن من شدة الضعف والهزال، حتى لكأنها دون الرابعة عشرة. وقد أقامت في الشارع، قبالة البيت، فكانت هيلين تراها كلما خرجت من البيت. وذات يوم همّت أن تمد إليها بصدقة لكن الفتاة الصغيرة نظرت إليها بعينيها الكامدتين ثم لم تزد على أن قالت لها : «لا أريد نقودًا، أريد أن أعمل عندك». كانت هيلين في البدء تقول لها ضاحكة : «إنك ما زلت صغيرة جدًا على العمل». فتصر الفتاة الصغيرة في عناد، من غير أن تحين منها ابتسامة : «أريد أن أعمل عندك وحسبك أن تجربيني». كذلك كان دخول شيتا البيت. فجعلت تساعد هيلين في الأشغال المنزلية؛ فتنظف الأرضية بعد أن تغمرها بالماء، أو تعتني ببيرفينش أثناء ما تكون هيلين في المدرسة. لم تكن كثيرة الكلام، وتكون دائمًا مغتمة تبدو مهمومة وغاضبة. كانت هيلين ترى أنها بوجهها المائل إلى السواد وشعرها المجعّد القصير تشبه ماوكلي. ثم يخفّ عنها التوتر، بل إنها قد تجعل تضحك أحيانًا، وتلعب مع بيرفينش، الشغوفة بها، لعبة الدمى. جهدت هيلين طويلًا أن تلقنها القراءة والكتابة، لكن شيتا لم تكن تفلح فيهما. فقد كانت تلبث مكبة على دفترها، وتجد صعوبة أن تمسك بقلم الكريّة بيديها اللتين أفسدتهما الأشغال. كانت تكتب بأحرف كبيرة على صفحة من الدفتر : JUANA. وما كانت تشارك الأطفال قط ألعابهم في الشارع. فما أن تنهي علمها حتى تنصرف بأجرها من النقود، قد وضعته في

رافعة نهديها، وبعض الخبز اليابس في كيس بلاستيكي. كانت لها حياة مليئة بالأسرار.

وذات يوم ذهبت هيلين لزيارتها في حي المظليين. كانت شيتا تقطن براكة قام أبوها على بنائها بنفسه، ببعض الآجر قد جعله من غير ملاط، وسقف من الألواح، وقطع الصفيح. ففي فصل الشتاء كانت المماشي تتحول إلى مجار من الأوحال. فإذا فاضت القناة تسربت المياه القذرة إلى البيوت. لم يتفق لهيلين أن رأت والدي شيتا، لكن في البراكة كانت هناك فتاة تكبر شيتا قليلًا، كانت مبقعة الوجه ببقع رمادية. قالت شيتا : «إنها أختي طانيا». ثم أردفت : «إنها مريضة. مصابة بالصرع».

كل ذلك يبدو الآن بعيدًا جدًا. فلماذا تفكر هيلين الآن في شيتا؟ فكأن كل ما حدث هنالك قد صار له معناه اليوم ليس من قبيل التفسير، بل أشبه بالنبوءة.

انقضى الوقت بعيدًا عن المكسيك، وها إن بيرڤينش قد صارت منذ وقت غير بعيد في سن شيتا وقت أن جاءت لتقعد لأول مرة فوق الحويط، قبالة البيت في توليپان. تتذكر هيلين جيدًا، فربما كان حر بروڤنس، في البيت الصغير في كاناكوبي حيث وجدت ملاذًا بعد موت حماتها، في تلك الغرفة المصبوغة بالجير، الشبيهة بغرفتها هناك. وأما الشارع فليس هو الشارع؛ فليس فيه أطفال يلعبون في المساء على الأرصفة، وما فيه غير شيوخ سخفاء يترامون كراتهم الحديدية في الساحة.

وأما الوقت في المكسيك فكان مختلفًا؛ فقد كانت السنون شديدة الطول، وشديدة الامتلاء معًا، كل تلك الأيام الحارقة الطافحة ضوضاء وعنفًا وانفعالات.

والعزلة أيضًا. وربما كانت العزلة مبتدأ كل شيء؛ كما عاصفة تنذر بالانفجار، فتغلف السماء من غير أن نعرف لها مدى، وإلى أي عمق في القلب. كان إدوارد يتغيب كل مساء فقد كان يذهب ليمضي الليل في المنطقة الوردية، في مواخير ناشو الرهيب؛

فكذلك سماه الناس. رجل قصير، صفراوي أشبه بجرذ؛ رجل فاسد، كان يلتقط الفتيات من الأحياء البائسة، ويحبسهن في حاناته الوضيعة.

في البداية لم تكن هيليين ترغب في معرفة شيء. ففي ظنها أنه كان يلبث في المستوصف بعد العمل، فلم تكن ترغب أن تعود لتتجرع كل ما مر بها مع فانسن لاورو الشجارات والغيرة، وأن تظل تهوي إلى بئر بلا قرارة.

وكان أن نبهتها إحداهن. وكانت لوب؛ فقد كلمتها كعادتها تلميحًا. ولوب، امرأة كان يتردد عليها من حين إلى آخر؛ في الظهيرة، بعد أن هجرها زوجها. كانت هيلين تحسب تلك المرأة تحبها حقًا، ليس للخدمات التي أسدتها إليها؛ فقد أقرضتها نقودًا، وكانت تمدها، عن طريق إدوارد ببعض الأدوية، وبعض العينات، والدهون لعلاج الإكزيما. كانت تحسبها جارة طيبة.

قالت لوب، وفجأة صار صوتها غريبًا، يمازجه أشبه بالصرير، وتلتمع عيناها خبثًا : «لكن ألا تعرفين حي ناشو الرهيب؟ على كل حال فالدكتور يعرفه جيدًا».

لم تطرح هيلين من أسئلة، فقد كانت تجد أن الأمر يعجبه وأنه كان معجبًا بتلك المرأة الأشبه بالبلهاء، وأن النساء الأخريات يخسرن أزواجهن أيضًا.

ولكن عندما كان إدوارد يعود فجرًا، فينام لصقها لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها أن تتنشق رائحة النساء الأخريات رائحة حارة لاذعة، تمتزج برائحة العرق. وبعد الجماع كانت تضم ركبتيها إلى صدرها، وتجعل تنصت إلى تنفسها العميق، وهي تسأل نفسها ما الذي يجعل حاجة المرأة قوية إلى مجامعة رجل.

ومع ذلك فبينما هي تستحم ذات يوم إذ رأت تلك الذوبيات الشنيعة على عانتها؛ شفافة، وتمشي منحرفة قليلًا أشبه بسلاطع دقيقة. وقد كانت اشترت سريرًا قابلًا للطي من السوق،

ووضعته أبعد ما في الإمكان، في الطرف الآخر من الغرفة. لقد اشترته لأجلها، لكن إدوارد من كان ينام فيه. ولم يكلف نفسه مجرد السؤال!

صرخت فيه هيلين حانقة : «لقد أصبت بالقمل». فرد عليها ببرودة ساخرة : «هل هو قمل هايتي؟». فهزت كتفيها : «إنه لا يحمل بطاقة بجنسيته». فقامت بحلق شعر عانتها كله ورشت مبيد الحشرات. بل إن إدوارد قد وجد في ما فعلت شيئًا مثيرًا للشبق، وخُيِّل إليها لوهلة أن ما حدث كان شيئًا عارضًا، وأن كل شيء سيعود كما كان. بيد أنه لم يتخلَّ عن منطقة ناشو الرهيب. فقد كان شيئًا في صميم طبيعته؛ فلم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من التردد على المومسات.

وإذًا، فقد كانت العاصفة تهبّ كل ليلة، وتُسمع للرعد زمجرة فوق البراكين، وتصطبغ السماء بلون المداد، فيشتد له خفقان القلب. كانت بيرڤينش في روع شديد، فكانت تنام في سرير أمها ورأسها تحت المخدة. وكان إدوارد يعود إلى البيت مع الفجر، فيرقد فوق السرير بكامل ثيابه، ويظل نائمًا حتى الساعة الواحدة، ثم يذهب إلى المستوصف. كيف استطاع أن يمضي تلك الليالي كلها هنالك مع السكارى؟ فإذا سألته هيلين نظر إليها نظرته الباردة والحازمة فمازج خضرةَ أشفاره اضطرابٌ؛ قلق كان يستعصي عليها أن تفهمه. وقد يغضب، فيشيح بوجهه كأنما يريد أن يقول : ماذا تحكين، أولًا نحن غير متزوجين. فتشعر بأنها واقعة في فخ، بعيدًا جدًا عن كل شيء، في هذا الملجإ الإسمنتي الذي يصطلي بشمس الزوال، فكأنه الفرن، ويظل الناموس يحوم حول ناموسيتي البنتين، ويظل طنينه مسترسلًا لا ينقطع حتى الفجر، وطنين الوزغات على الجدران.

كانت بيرڤينش في حالة صحية مزرية، فبطنها منتفخ من الأميبيا، وكانت تتقيأ، وتجتاحها حمى لاهبة. لم يكن إدوارد في البيت، ولزمها أن تركض تحت المطر، حتى الساحة لتجد سيارة

أجرة، وأن تمضي الليلة في المستشفى، فيما كانت ممرضات الخدمة يحقن بيرڤينش بمحاقن من الفلاكيل. لم يفعل إدوارد شيئا؛ فلم يكن في المستوصف، بل كان عند ناشو الرهيب. وعندما عنّ لهيلين أن تلومه في ذلك، رد بصوته الهادئ كالعادة : «ربما يحسن بك أن تعودي إدراجك إلى فرنسا مع البنتين، فأنا سأرحل على كل حال، فقد طلبت نقلي». لأول مرة يتحدث عن زوجته وابنته في هايتي، وأما هيلين فلم تزد على أن قالت بصوتها الخافت الواهن : «لم أكن أعرف أن لديك بنتا، ما اسمها؟». غير أنه لم يعقب بشيء.

كانت ليلة عاصفة، وإدوارد غائب. خرج الدوبرو عن سريره، وعام على البلدة، فسار يغمر الشارع الرئيسي وينزل إلى المنخفضات، جارفًا كل شيء يلاقيه في طريقه. واستيقظت هيلين بالأنين تطلقه بيرڤينش وهي تنام. وعندما نهضت هيلين، وضعت قدمها في الماء المثلج الذي كان يملأ البيت. ولا تزال حتى اليوم تشعر بالقشعريرة من الفزع الذي اجتاح كيانها، والحرارة المرهقة لذلك الماء المثلج الغامض الثقيل، الذي كان ينفذ من تحت الباب ويتسرب إلى البيت. وحاولت هيلين، في سورة من الغضب، وعلى هدي مصباح كهربائي، أن تسد الشق تحت الباب ببعض الورق والكتب والأقمشة والثياب، لكن التيار كان أقوى بكثير. وفي الوقت نفسه كان ذلك الصمت، وذلك البطء في كل مكان، شيئا رهيبا. وانقطع التيار الكهربائي. فأيقظت هيلين كليمونص، وحملت بيرڤينش الصغيرة بين ذراعيها وارتقين الطاولة في الصالون. وهنالك قعدن منتظرات، لا يكدن يتفوهن بشيء، قد تشبثن ببعضهن، يحكين دجاجات فوق مجثم.

وعند الفجر سمعت هيلين صرخات في الخارج، ونداءات فخيّل إليها أنه إدوارد قد جاء. نامت بيرڤينش بين ذراعيها. وكانت كليمونص باردة، تزم شفتيها كأنها مريضة.

إن الجار، الرجل صاحب النحل، هو من كان يجوس في الشارع ويقرع على الأبواب. ثم توقف قدام باب هيلين : «هولا! هل كل شيء على ما يرام؟». كان السؤال أشبه بالساخر في تلك الظروف. فصاحت هيلين، وهي معلقة فوق طاولتها : «كل شيء على ما يرام، شكرًا». بدأ ضوء النهار يلوح من خلال النوافذ، ورأت هيلين أن الماء قد انخفض، فقد كانت أرضية البلاط تلوح في مواضع منها كأنها شاطئ من وحل. مشت بقدميها الحافيتين تحمل بيرڤينش إلى سريرها، وخرجت وكليمونص لتريا ما كان يحدث في الخارج. كان شارع توليبان بحيرة من وحل ساكنة. وعلى الحائط الأبيض للجنينة المقابلة رسم الفيض هيأة داكنة للأمواج. كانت بعض أطراف الأغصان معلقة بالحجارة وكان هنالك بعض قطع الكارطون، وبعض قطع القماش، بل كانت هنالك بعض الأحذية. وكان الناس يذرعون الشارع وبأيديهم المصابيح الكهربائية، كأنهم أشباح مبلولة وقد شمروا سراويلهم، والنساء رفعن ثيابهن إلى ما فوق أفخاذهن. وكان بعض الأولاد يركضون على الأرصفة وينفجرون بالضحك. والتقت كليمونص الجماعة روزاليا لاغويرا، وبينا، وشاقيلا، فجعلن يتحدثن بحماس فتسمع لهن أصواتًا حادة كأنهن فئران صغيرة. ولربما تكون هيلين في ذلك الصباح، وهي بإزاء ذلك الشارع الموحل وفي خضم ذلك الضوء الغريب لنهار عائم، وتلك العزلة أدركت أن كل شيء قد انتهى، وأن عليها أن ترحل. لكنها قاومت على كل حال، أيامًا وشهورًا، فقد كانت تريد أن تقنع نفسها بأن كل شيء سيعود سيرته الأولى، وأن الحياة ستعود كما كانت قوية وجميلة، وغنية بالتجارب والمستجدات. ولربما كان بسبب ألعاب كليمونص وبيرڤينش في الشارع وتلك الخرجات للتبضع، وتلك الرقصات، وتلك الإيماءات وتلك الأغاني. كانت تخشى أن تعود إلى هناك إلى فرنسا في فصل الشتاء، فتعاودها أشباح خيباتها وندوب الماضي أشبه بأخاديد

تعود لتسقط فيها حتى القرارة. تأشيرتها للإقامة المؤقتة على وشك أن تنفد، وهي تعرف أن إدوارد بيرين لن يفعل شيئًا لتمديدها. وقد كان قرر أن يرحل قبل أعياد الميلاد فيعود إلى هايتي وينتهي كل شيء. والآن وقد حسم الأمر أصبح لطيفًا، فهو يلبث في البيت مساء يقرأ أو يكتب تقاريره. كان يثرثر مع الجيران، وساء هيلين أن تكتشف أنه هو من كان الجيران يحبون، وهو من كانوا يأسفون لفراقه.

لم يفلح شارع توليبان في استعادة وجهه الذي كان له من قبل. نشفت الحشيات في الخارج تحت الشمس، وغسلت الأرضيات، ومع ذلك فالوحل كان يعود ليطفر كل يوم. كان يغطي كل شيء، حتى لم يسلم منه زجاج ساعة هيلين. وكانت هنالك أيضًا رائحة غريبة، كأنها رائحة الكهوف أو رائحة الموت، فكان الناس يقولون إنها المقبرة قد اكتسحت كل شبر في القرية.

إن تلك الرائحة الرهيبة هي ما حملت معها هيلين، في حقائبها، فكانت تملأ ثيابها، وكتبها، وتفوح حتى من شعر بنتيها. فكأنها خارجة من مرض طويل. وفي فبراير هبت العواصف على بروفنس، فكان المطر يهمي مدرارًا على سطح البيت القرميدي فيمنع هيلين النوم. فقد كانت تتقرى أقل علامة للفيضان. كانت كليمونص نصف داخلية في ثانوية أفينيون، وكانت بيرڤينش تذهب إلى مدرسة القرية. لقد كان الأمر عليهما خاصة في غاية الصعوبة. فقد كان التلاميذ يسخرون من لكنتهما، ومن الكلمات الفرنسية التي تحرفانها. كانتا تقولان : «la maison est bide»، أو «tu me pisses le pied». وذات يوم إذا زميلة لكليمونص في الفصل تسألها : «هل صحيح أنك كنت في المكسيك؟ هل توجد هنالك مدارس؟».

بعد الفيضان لم تعد شيتا. كانت هيلين تنتظرها كل صباح فقد حسبتها مريضة، أو تكون انشغلت بتنظيف بيتها كله، أو أن حالة

أختها قد زادت سوءًا. وبعد أسبوع من غير أخبار، مشت هيلين حتى حي المظليين. كانت تحسب أنها ستجد ذلك الموضع ذمر عن كامله، فكانت مفاجأتها عظيمة أن وجدت الفيضان لم يمس حي المظليين، أو أن حياتهم كانت في غاية البؤس والعوز، فلذلك اجتازوا تلك المحنة من غير أن يخسروا فيها شيئا. كان بيت أبي شيتا فارغًا لكن الخبر سريعًا ما انتشر في الحي، وبعد حين وصلت أخت شيتا. كانت تمشي الهوينى، مستندة إلى الحيطان. كان وجهها رماديًا، ولاحظت هيلين ورمًا دمويًا على جبينها فحسبت أن الفتاة سقطت خلال أزمة. «أين خوانا؟» كانت تينا تتكلم بتثاقل، وصعوبة : «لقد رحلت، - ومتى تعود؟». كانت الفتاة تبدو كأنها تبحث عن كلماتها. «لا أعرف. أبدًا». لم تكن لها النظرة السوداء التي لأختها، بل كانت عيناها كالفارغتين، وكانت هيلين منقبضة الفؤاد. «كيف أبدًا. لكن إلى أين ذهبت؟». قالت تينا : «لقد تزوجت. قالت لي أن أسلمك شيئًا». ودخلت البيت، ثم عادت تحمل الدفتر الذي كانت تكتب فيه خوانا. في الصفحة الأخيرة من بعد كل التمارين كتبت : .JUANA. GRACIAS

هذا الدفتر هو ما حملت هيلين معها حتى بروفنس. لاتعرف لأي سبب لم تحمل معها شيئًا مما صنعت بنتاها الرسوم وتمارين التاريخ، والحساب، والإملاء. لم تحمل معها إلا ذلك الدفتر، الممتلئ بكتابة شيتا الرعناء، والمنتهي بتينك الكلمتين.

(٦)

كانت بيرڤينش تنزلق إلى حفرة عميقة مظلمة. وربما كان حلمها القديم، الذي ترى فيه أخدودًا يخترق الأرض، وتجعل تزحف فيه، وهي ملصقة مرفقيها إلى جنبيها، وقد انسلخت ركبتاها. كان المكان شديد الضيق؛ فلا يسعها أن تتحرك فيه إلا بلي جماع جسدها التواءات مريرة مؤلمة، وشديد الطول حتى إنها لم تكن تعرف هل تتقدم فيه أم تتراجع. ما عادت تعرف كم

مضى عليها من الوقت وهي محبوسة في هذه الغرفة. ربما أسابيع أو شهور. كانت تنهض بين الفينة والأخرى وهي ملفوفة في المنزر الذي أعطاه لها داكس فتسير مترنحة حتى الحمام. ثم تعود لترقد على السرير.

كان الجو في الخارج رائقًا؛ فكانت ترى نور الشمس من خلال الستائر المسدلة. كان الفصل خريفًا، وربما كان أول الشتاء. الدارة تقوم وسط غابة من الصنوبر، فكانت بيرڤينش تشم رائحة الإبر، وتصيخ السمع إلى صفير الريح الخفيف وإلى طقطقات السناجب وهي تقرض أكواز الصنوبر. السكون يرين على كل شيء، حتى ليرنّ أقل صوت في ذهن بيرڤينش كأنه فرقعة. فكانت تتقرى الضجات، ثم ينفصل فكرها عن الواقع، فتعود إلى أحلامها. كانت حكاية طويلة، بلا سبب ولا نهاية، تظل في تناء ودنوّ، تجذبها كما شاءت في تيارها. فهي تارة مغمّة مخيفة، وتارة أخرى عذبة رائقة، تمازج ذكرياتها. فأحيانًا ترى نفسها في كاميكوارو على البحيرة الكبيرة الباردة؛ فهي تركب قاربًا مسطحًا تنفذ به بين جذوع الأشجار الملتوية، وفوق الأجراف، وتتناهى إليها من بعيد موسيقى المرياتشي الاحتفالية. وتسمع رشاش أصوات، وضحكًا، أو تسمع أغنية ممطوطة مشربة بالسكر تنطلق من بوم-بوكس في تلك الأنحاء، وصياح اليافعين وهم يلعبون الكرة في براح. وفي أحيان أخرى كانت تعود لتعيش من جديد لحظات من حياتها الماضية ملؤها عنف وخشونة؛ في الليالي التي كانت تمضيها رفقة لورون في حانات المدينة العتيقة، كان هنالك ذلك الرجل الأنيق المستند إلى طاولة المشرب، فكان ينظر إليها ولا يحول عنها بصره، فكانت تحس لتلك النظرة أشبه بنهش، فتطفو في الفراغ. «ماذا هنالك؟ إلى م تنظر؟». فيندلع العنف بسرعة قذيفة، ويملأ القاعة. يقع لورون أرضًا، تحت الرجل الذي يجعل يخنقه بشراسة، وتكشيرة التذاذ تنفرج لها شفتاه. فما كان منها إلا أن

جعلت تضرب ذلك الرجل بكل قواها وقد شدت على قبضتيها، من غير حتى أن تشعر بألم فكانت تجذب الرجل من شعره، وتنهال عليها بالسباب : «أيها المعتوه القذر، اللوطي، ابتعد عنه! ابتعد عنه!». لبث لورون على الأرض، ممددًا وقد شبك ذراعيه، وبقعة حمراء على عنقه، وعيناه طافحتان بالدموع، ومن حولهم كان الناس يضحكون. جعلت بيرڤينش تسند لورون، فقد أحاطته بذراعيها، وأخذت تسحبه إلى الخارج. كان الظلام مخيفًا، والمطر يتساقط فينشنش إذ يصطدم بأضواء النيون. كانت ترى ثانية هذا المشهد الشبيه بفيلم رديء يجري في ذهنها فيشتد له خفقان قلبها، كحالها في تلك الليلة، وهي في الشارع وتحس بأنفاسها تحرق حنجرتها، وتشعر بدوار يتموج له الرصيف، وتحس بالعزلة الطاغية على كل شيء في حياتها.

تُراها كانت مريضة؟ وهل كان ذلك معنى أن تمرض؟ لم يكن ما ينتابها من قبيل الحمى؛ كانت تتذكر العشيات في المكسيك، وهي في الغرفة الكبيرة بسقفها المزدوج تنظر إلى أعشاش العناكب ترسم نجومًا. أرادت هيلين أن تزيلها بضربات المكنسة، فصاحت بها بيرڤينش : «كلا، من فضلك، لا تقتليها، إنها صديقاتي، وأنا أحبها». وههنا، في الغرفة المغلقة، ومع شمس الشتاء التي تلتمع في الخارج والصنوبرات التي تطقطق، والسناجب والجرذان التي تتقافز من غصن إلى غصن، تشعر بأنها ترحل إلى الوراء، في ذكرياتها، فليس لديها ما تتشبث به.

ربما تتشبث بما يختبئ في بطنها؛ ذلك السر، وذلك التكتم. كانت بيرڤينش تتكور على نفسها، حتى لا تفقده، أو تسلَبه. ويأتي داكس في المساء، متعجرفًا بلباسه الأسود، ووجهه ناصع البياض؛ فقد كان يكره الشمس؛ فلم يكن يذهب قط إلى الشاطئ، ولا ذهب قط إلى الحديقة؛ كان يعيش في بيت مغلق الشبابيك، يحكي مصاص دماء.

كان يضطجع بكامل ثيابه فوق الحشية إلى جوارها فلا

يلمسها إلا مرة أو اثنتين. دس يديه الباردتين من تحت قميصها، فداعب نهديها وبطنها. كان يكلمها فلا تنصت إلى ما يقول. وذات يوم وجدها بقرب الهاتف. فصاح فيها غاضبًا : «تريدين أن ترحلي، يمكنك أن ترحلي. متى شئت. سأقلّك إلى المدينة. فما عليك إلا أن تقوليها. إنه شيء سهل. ولاحاجة إلى أن تستعملي الهاتف». ثم نزع سلك الهاتف من البهو.

في البداية، في الأوقات الأولى، في الأيام التي تلت وصول بيرفينش إلى الدارة، قدمها داكس إلى أصدقائه. وجدت الأمر تافهًا، وينطوي على تهديد غامض. جعلها تلبس فستانًا صيفيًا، وأرادها أن تمشط شعرها وتتزوق مثل دمية. وأما الآن فقد صارت ترفض. قالت له إنها لا ترغب في ذلك بسبب بطنها؛ فلم تكن تريد للناس يروها على هذه الصورة. لذلك تركها وحيدة في الغرفة، مستسلمة لأحلامها.

لم تكن ترى أحدًا. ومن وقت لآخر، كانت تسمع رشاش أصوات، في البهو أو من ناحية المطبخ. وضجيج سيارة في الحديقة. تنظر من خلال شقوق الستائر، فلا تستطيع أن ترى غير جزء من الطريق يكسوه الحصى، وحيز معشب قد بدأ يصفرّ تحت الشمس. كانت تصيخ السمع إلى الطقطقات وتشم رائحة الجوز المقلي تحملها ريح ساخنة، لبرهة تكفي لتتسبب لها الغثيان. كان شيئًا حيًا، شديد حيوية. وكانت تشعر بنفسها كالميتة. فهي تلبث جالسة على البلاط، وقميص نومها مشدود إلى عرقوبيها، وذراعاها منعقدتان من حول ساقيها.

كانت تكاد لا تطعم غير المخفوق اللبني. فكان داكس يعيد ملء أقداح الثليجة بالونيلة ولترات الحليب، فلم تكن تقصد المطبخ إلا لتدير المازجة. وبين الفينة والأخرى كانت تفكر في كليمونص، أو تفكر في أمها، لكنه تفكير بعيد، وثقيل ومشوش. وما عادت تشعر بغضب، ولا بضغينة إذ تتذكر لورون. لقد خانها، وباعها إلى داكس. وقد باتت الآن مملوكة لهذا الرجل القميء،

التافه، العاجز، هي والجنين الذي كان يكبر في بطنها.

ذات يوم قال لها داكس : «إن أختك تبحث عنك، فقد هاتفت الشقة، وقالت لها ساشا إنك لا ترغبين في التكلم وإياها. ينبغي أن تكتبي إليها». ومد إليها ببطاقة بريدية شديدة القبح، يظهر عليها ساحل، أو شاطئ. فرسمت على الصورة راعي بقر يطلق النار على المستحمات، وعلى الجانب الآخر كتبت : «Wish you were here». نظر داكس في الرسم وقال هازئًا : «هذا ما سيطمئنها». هو الذي كتب العنوان، وأما بيرڤينش فما عادت تتذكر حتى المكان حيث كانت تقيم كليمونص. هنالك، في بوردو، مع ذلك الرجل پول، المحامي، أو القاضي مثلها، لم تعد تتذكر شيئًا، فما عادت تهتم لشيء. وربما يكونان رحلا أو افترقا. فما عاد يعنيها شيء.

لو كان لها أن ترغب عند الاقتضاء في رؤية شخص لودت أن ترى شيتا. فهي لم تفكر في شيتا منذ سنين والآن في صمت هذه الدارة المهجورة، التي احتلها هؤلاء الأفاقون لفصل، عادت شيتا. عندما كانت كليمونص تذهب إلى المدرسة، كانت هيلين تجوب المدينة على متن سيارة پيرين R ١٦ القديمة المنبعجة. حينها تكون شيتا في البيت، وليس معها غير بيرڤينش. فتخرج علبة اللعب في قاعة الأكل الكبيرة، المغبشة، وتأخذ تتسلى وبيرڤينش، في دعة ولطف كما قد لا تكون لعبت، دون شك، مع أي شخص من قبل.

كانت شيتا المدمدمة، الخرساء، إذا لبثت وحيدة بمعية بيرڤينش يأتلق محياها فجأة، وتأخذ تقهقه ضاحكة، وهي تخلع عن الدمى ثيابها، وترتب الأثاث الصغير جدًا، والكؤوس والقناني، والصابونات، والأمشاط الصغيرة. كانت في السابعة، أو الثامنة، في مثل سن بيرڤينش، فهي تكلم الدمى وتدندن لها بحكايات وأحاجي. فإذا ضحكت التمعت أسنانها البيضاء ببريق في الظلمة. كان بلاط الأرض أخضر باردًا وكان الضوء في أوراق

الغوافات يحرك البقع على البلاطات بما تخطر السحب. لم يتفق لبيرڤينش أن عاشت بعدُ مثل هذه اللحظات.

وعندما قررت هيلين أن عليهما أن ترحلا، أدركت بيرڤينش أن الأمر قُضي، وأنها لن ترى بعدُ شيتا. إنها تتذكر ذلك، وبعد الفيضان انهار كل شيء. أدركت أنها لن تعود كما كانت. وقد تكون شيتا ماتت.

إنها لم تبك؛ لقد اعتزلت الناس، وكرهت أمها. لم تكن كليمونص نفسها تستطيع فهمًا لما جرى. لم تكن سورةُ غضب يمكن نسيانها، بل كان ألمًا تعتمل بها دخائلها، وتزيده كل لحظة، ويزيده كل يوم حدة وانغراسًا. ولربما تكون في تلك اللحظة أدركت الغرور الفظيع عند هيلين، بحيث تجعل حياة أطفالها تظل تتقلب بتقلب غراماتها المتوالية.

ذات ظهيرة، في قريب من المساء، كانت بيرڤينش وحيدة في الدارة، داخل المطبخ، تغلي ماء في طنجرة لإعداد العجائن، فسمعت رشاش أصوات في الخارج. كان النهار لا يزال مضيئًا، وكان ضوء ساخن يتسلل من خلال المصاريع، أشد التماعًا من قضيب النيون من فوق المطبخة.

جعل أحدهم يصرخ بصوت حاد غريب، أشبه بالبكاء. الصوت يأتي من الجانب الآخر من البيت، أو من الحديقة في مقدّم البيت. مشت بيرڤينش صوب الغرفة، ومشت فوق الحشية، وألصقت وجهها بالمصراع المغلق. وعلى الفور، ومن قبل أن ترى أي شيء، تعرّفت على صوت لورون؛ فقد كان يصرخ باسمها. لم يكن بمقدورها أن تراه من خلال شقوق الشبابيك، فقد كان مختبئًا خلف سياج الفضاض. وما رأت غير الممشى المكسو بالحصى، وهياكل لسيارات متوقفة. لاشك أن حراس داكس كانوا يدفعونه فقد كانوا يبتعدون ثم لا يلبثون أن يتراجعوا إلى الوراء وكان هو يصيح باسم بيرڤينش بصوت حاد مختنق. وتسمع صوته المضحك فيملؤها فزعًا، ويشتد له خفقان قلبها،

لكنه لم يكن خوفًا بل كان تقززًا، فكأنما هي على وشك أن تعود لتعيش كل ما مر بها من البداية، وأنها ستجد نفسها من جديد في الشارع تصطلي من ذلك الحر الشديد، والضباب المخيم على البحر وانعكاسات الشموس على السيارات والليل الذي يقبل وواجهات المتاجر التي تضاء، فلا تعرف لنفسها وجهة توليها.

لبثت بيرفينش من غير حراك، وهي تستند بجبينها إلى المصراع المعدني. وبعد لحظة سمعت ضجة قوية، والأبواب وهي تصطفق، والسيارات التي كانت تنزل الهضبة، وتنجه صوب المدينة واحدة تلو الأخرى. ثم خيم الصمت.

نامت بيرفينش ورأسها على الحشية، وقد طوت ركبتيها إلى بطنها، والتفت التفافًا على الطفل، الذي كان لا يفتأ يتقلب في منامه. انتظرت أن تخف ضربات قلبه، وتعود كما كانت بطيئة، بطيئة جدًا. انتظرت أن يعود داكس، لكن حل المساء. وقد كانت تسمع في كل ليلة صرخات محزونة تطلقها الشحاربر. لكن كان يروقها سماعها، كما كان يروقها أن تسمع صريف الزيزان، وهو يزداد قوة، إلى أن يصير يملأ الغرفة بخيط صوتي مشدود بين الجدران. كانت بيرفينش تتذكر الليل في المكسيك، وضجات الليل التي كانت تبعث في نفسها خوفًا شديدًا، والناموسية المطوية تحت الحشية والتي كانت تتحول إلى خزانة. وكليمونص التي كانت تنظر إليها، من غير أن تنبس بكلمة، إلى أن يغلبها النعاس.

لم يعد داكس إلى البيت. ولكن في زهاء منتصف الليل، بعيده أو قبيله، سمعت ضجة أخرى. وكانت الحديقة تلتمع بومضات. حدث ذلك بسرعة فائقة، فكأنما كان شيئًا متوقعًا، أو محتومًا.

دخل رجال الشرطة الغرفة، وبأيديهم مصابيح موقدة. فوجهوا أضواءهم إلى حيث كانت بيرفينش متكومة على نفسها على حشية، وقميصها الليلي الوردي المزين بورود صغيرة مشدود حتى عرقوبيها. بدت شاحبة تحت أضواء ذلك السيل

من المصابيح، وعيناها ملطختان بالريمل السائح منهما، وفمها أحمر كجرح. فبدت كحيوان طريد في جوف عرين. «تبًا، هذا غير ممكن!»، قال رجل الشرطة الذي دخل أولًا. ذلك كل ما سمعت بيرڤينش. فحدثت نفسها : ما الذي هو غير ممكن؟

(٧)

جاءت طانيا مع الربيع، في الصباح الباكر. وقد كانت أثلجت في الليل، وتتذكر بيرڤينش أن البياض كان يكتنف الشجيرات، ويغمر أرصفة الساحة، عندما جرى نقلها إلى العيادة. لكن السماء كانت في ذلك الصباح صافية رائقة فراقها ذلك.

في المركز لم يكن ينتظرها أحدٌ. مر كل شيء في عجالة. ففي الليل سال منها الماء، ولم يسعفها الوقت للذهاب إلى دار التوليد. وولدت طانيا في عيادة المركز، فوق سرير عسكري، ليس عليه غير ملاءة واحدة، في غرفة طويلة مظلمة، ليس بها غير نافذة عالية مسيجة في المؤخرة؛ وقد بدأ يتسلل منها ضوء النهار. وكانت الممرضة الغوادالية شارلين وسجينةٌ تدعى جانين هما اللتان قامتا بمهمة المولدتين والملاكين اللذين انكبا على مهد طانيا، ورحبا بها.

بعد الولادة استسلمت بيرڤينش لنوم طويل ولذيذ لم تعرف له طعمًا منذ شهور. لم تشأ أن يخبروا أحدًا من أسرتها بشيء. خاصة أمها. ثم إن هيلين كانت مشغولة جدًا بجون لوك سالڤاتور ومشغله للفن والخزف. وكانت بعيدة جدًا عن بيرڤينش، كأنما هي تسكن على الطرف الآخر من الأرض.

كانت بيرڤينش تنظر منبهرة إلى تلك القطعة من لحم أحمر، الملفوفة في بعض الخرق، والتي كانت تستيقظ لترضع من صدرها، ثم يعاودها النعاس بين ذراعيها، وهي تشد قبضتيها الصغيرين. كانت لطانيا عينان كعيني أمها بذلك جزمت شارلين؛ لقد كانت لها عيناها العجيبتان بزرقتهما الحائرة. وربما كانت لها قسمات والدها، لكنه شيء لم يخطر ببال بيرڤينش. إن ذلك

الشيء الصغير الحي كان يخصها، يخصها وحدها؛ لقد كان الشيء الوحيد الذي لم يسبق لبيرڤينش أن امتلكته أبدًا. لم يكن مثل حيوان، أو شيء من الأشياء. لقد كان شيئًا ذاتيًا وشخصيًا؛ كان يقترن بحياتها ويأخذ من حياتها ويضيف إليها معًا.

لم يسبق لبيرڤينش أن دار بخلدها شيء من هذا القبيل. فقد مر عليها اليومان، أو الأيام الثلاثة، بعد الولادة، وهي في تقلّب فوق فراشها في زنزانة المركز، وإلى جوارها كانت طانيا تنام في مهد واسع كبير. وبين الفينة والأخرى يمر خيال على محياها الصغير، فتغضّن أنفها وتقطب عينيها، ثم لا تزيد عن همهمتين، مثل : هين-هين. فتمد إليها بيرڤينش بصدرها لترضع. ثم يعاودهما النعاس معًا، فيكون نومًا عميقًا وخفيفًا، يحلق بهما فوق سحابة.

بعد ذلك خرجت بيرڤينش من المركز. فوجدت لها شارلين بيتًا في البادية، على مقربة من البلدة المسماة مازوكس. إنه تجمع كانت تعيش فيه بعض الأمهات العازبات، وبعض النساء المعنفات، اللائي فررن من أزواجهن. وتديره امرأة رمادية الشعر، تدعى راشيل.

كانت في البيت غرفة صغيرة، في القبو تحت الحديقة تؤوي إليها بيرڤينش وطانيا. وكانت تحيط بالبيت حديقة كبيرة، بها حيوانات، ودجاج، وإوز، وكلب أسود كبير أشعث، كان يركبه لورون، ولد راشيل الصغير. المكان هناك هادئ؛ ملؤه ضحك وشبان، كمثل ما كان من قبلُ شارع توليپان.

كانت الحديقة في الصباح تطقطق من الصبر. وكانت النحلات تنكب على أولى الأزاهير. ويُسمع غناء طيور أبي حناء في الأدغال. ولربما سمعتْ في وقت الفجر عندليبًا قد شرع يوقظ الفتيات ليقص عليهن من حكايا الحب.

عادت بيرڤينش لتتعلم كل شيء، منذ البداية. الكلام والغناء، والمشاركة في أشغال المطبخ، وغسل ثياب الرضّع وتجديد

الصباغة لشبابيك البيت. وكانت ترافق راشيل على متن السيارة لتتبضع من سوق بريتيول. خُيّل إليها في المرة الأولى أن تلك السوق تقع في نهاية العالم. فمنذ وقت طويل لم تر شوارع المدينة، والسيارات، والأشخاص المتعجلين الذين ينظرون إليها فترتجف ارتجافًا. كانت تلتصق براشيل فتقول لها : «هيا، ولتتجلدي، وكوني قوية!».

كان الموعد لمحاكمة جلاديه يقترب. ولزم بيرڤينش أن تذهب ذات يوم إلى مارسيليا. فعهدت بطانيا إلى الفتيات الأخريات، ورحلت وراشيل على متن دراجة نارية. وعند خروجها من التحقيق، التقت في أروقة القصر داكس والجانحين ساشا وويلي. كان داكس صغيرًا، في رنق الصبا فنظر إليها ولم يفه بشيء، فربما لم يتعرف عليها. وتوقفت بيرڤينش، شديدة خفقان القلب، فكأنما حدث ذلك كله منذ وقت طويل جدًا، وفي حياة أخرى. كانت أشباحًا رمادية حزينة تنسلّ بطول الحيطان، مقيدة المعاصم بالأصفاد.

لم يكن لورون وإياهم. فقد أخلي سبيله في مقابل ما قدم من معلومات لأجل الإفراج عن بيرڤينش، فلم يعد لديهم ما يتابعونه فيه. فما كان سوى طالب صغير يتعاطى المخدرات، فأرسلوه لاستكمال العلاج من الإدمان.

وذات مساء هاتفته بيرڤينش من المخدع الهاتفي في مازوكس إلى بيت والديه. كان صوته غريبًا يخالطه انكسار. وكان يرد بكلمات أحادية المقطع، كأنه ولد متقلب الأطوار. قالت له بيرڤينش : «إن عندي الآن رضيعًا». فصمت بعض حين، ثم قال : «ما اسمها؟». ردت عليه ساخرة : «ومن قال لك إنها بنت؟». قال : «هو ما كنت تريدين، أليس كذلك؟». ثم قال بصوت زاد خفوتًا وانبحاحًا : «وهل تسمحين لي برؤيتها قليلًا؟». فربما كان في نيته حقًا أن يأتي لرؤية الوليد. قالت : «سنرى، ربما في يوم ما، فلا أعرف بعد». ثم قالت : حسن، إذًا

سلامًا، فأنا مضطرة إلى الذهاب». وخامرها شعور أنها قد تراه في يوم من الأيام.

قالت لها راشيل : «احرصي خاصة على ألا تتصلي به، وألا ترزيه بأي حال؛ فلا تنسي أبدًا ما فعل بك، وأنه قد باعك ليشتري الكوكايين». كانت راشيل لطيفة، لكن ماذا عساها تفهم من الحياة، وماذا كان بمقدورها أن تفهم من تلك الحفرة السوداء التي تظلين تهوين إليها وتهوين، وليس بوسع أحد، أو بمقدور شيء، أن يمنعك أن تظلي تهوين إلى أن تصيري في القرارة، في قرارة القرارة؟ وماذا كانت تعرف عن بيرڤينش، وعما في قلبها، وماذا كانت تعرف عن تلك الحفرة السوداء في دخيلها؟ وما كان الآخرون سوى الظروف المحيطة بسقوطها، وما كانوا السبب فيه.

عادت إلى البيت في مازوكَ قبل حلول الليل. قطعت الطريق لوحدها مشيًا من القرية، وسط الكروم، وهي تدخن سيجارة، وقد استطابت الأمر. نزل الولد الصغير لورون خلال المزرعة لاستقبالها، وهو لا يفارق ظهر كلبه الراعي الأسود. «هل ذهبت لتري عشيقك؟». إن الولد أذكى من والدته. قالت بيرڤينش : «أجل، لكن لا تكرر هذا الكلام بعد، ليلًا يسمعه الآخرون». كانت نوافذ البيت تلتمع بما ينعكس عليها من زرقة السماء. ارتقت بيرڤينش المنحدرَ إلى أن جاءت إلى الحجرة الكبيرة حيث كانت الفتيات يحرسن الرضع مجتمعين. فقد صنعن بالمخدات أشبه بحلبة في الوسط، وتحلقن من حولها، فكان الرضع فيها يتدحرجون ويترجحون. وكانت طانيا هناك؛ فهي تزحف بإستها العارية وسط الآخرين. ضحكت بيرڤينش، وأحست بنفسها حرة طليقة.

عند اقتراب الصيف سافرت كليمونص برفقة پول. تلك كانت عطلتهما الأولى، منذ أن تزوجا. اختارت كليمونص المكسيك بطبيعة الحال. كانت الرحلة بالطائرة حتى مكسيكو طويلة،

لكنها لم تكن سوى رحلة. لم تكن تشبه ما كانت تفعل وأمها في الماضي، عندما لبثت بيرڤينش في كاناكوبي برفقة الجدة لاورو، ورحلتا ليلًا ترجعا أبدًا.

لم تتعرف كليمونص شيئًا بطبيعة الحال. كانت حافلة ميشواكان تسير على طريق سيار جديد يمر بڤيا كورتا وكيريتارو، وأكامبارو، وموريليا. لا دجاج فوق السطح ولا هنديات مقرفصات في الممشى. كانت حافلة فاخرة مصبوغة الزجاج، لا تتوقف في البلدات. ولما بلغا مدينة زامورا، وجدا عند نهاية الطريق المعبدة، فنادق جديدة، بها جنائن ومسابح. وكانت الطريق شديدة الازدحام.

أنزلتهما سيارة أجرة عند زاوية شارع توليبان. المساء في أوله، لكن الشارع خال من الأطفال. وما كان هناك غير عجوز تقتعد عتبة بيتها، قبالة البيت حيث كانت تعيش شافيلا من قبل. لم تجرؤ كليمونص أن تسألها شيئًا، لوجود پول وإياها.

كان پول يشد على يدها بقوة، من فرط الانفعال. قال لها : «هل ههنا كنت تسكنين؟». كان بيت الدكتور پيرين الصغير يبدو كالمهجور. فالجنينة أمام نافذة المطبخ غمرتها الأعشاب. بحثت بيرڤينش عن بيت بينا؛ حيث كان يعيش سيد النحل. قرعت على الزجاج، فخرج الشيخ. كان نحيفًا، بوجه ضامر يوحي باعتلاله. فاهت كليمونص باسمها، بيد أن الشيخ ما عاد يتذكر شيئًا. سألها تأدبًا عن أحوال أسرتها. لكنه كان يتذكر الدكتور پيرين جيدًا. وبينا؟ وروزالبا؟ وكارلوس كينتو؟ فجاء إشارةً مبهمة بيده؛ كان يشير إلى أنهم في البعيد، على الجانب الآخر من البراكين. لقد رحلوا، وصاروا على الجانب الآخر؛ من في لوس أنجلس، ومن في كاليفورنيا.

بينا تعمل، ويبدو أنها مقبلة على الزواج. كارلوس في الجندية. روزالبا وماييرا تذهبان إلى المدرسة هناك. ولم تعودوا أبدًا. والدتهما ترسل ببعض النقود بالبريد. تزوجت من كرينكو، وهما

يسكنان بيتا كبيرًا، ولديهما سيارة جديدة، بل لديهما فيها تلفاز، وجهاز لتشغيل الأقراص. قالتها بصوت من لم يكن يصدق حقًا.

بات شارع توليپان من بعد الأطفال رطبًا باردًا. كليمونص تشد بقوة على يد پول. فكأنما رأت تلك الأشياء كلها في حلم؛ الشارع مساء وألعاب الأطفال، وشاڤيلا وبيتو الراعي، وبينا، ومايبرا، وروزاليا لاغويرا. لم تعش تلك الأشياء، بل حلمت بها كلها. والصياح والأغاني. كانت بيرڤينش تبقي يدها الصغيرة في يده تشد عليها بقوة، فيما تأخذ الشرارات تتفجر فجأة على الرصيف، أمام الأطفال. وفي الليل كانت الشرارات تدوِّم، وتتصاعد، لتختلط بالنجوم.

البحث عن المغامرة

«أثناء الحفل الذي يسمونه إكسنكستيوا Ixnextiua، ومعناها البحث عن المغامرات، كانوا يقولون إن جميع الآلهة كانت تنخرط في الرقص، ولذلك كان كل الراقصين يتنكرون في شتى الشخوص فمن متنكر في صورة طيور، ومتنكر في صورة حيوانات، ومن يتحول إلى طيور طنانة، ومن إلى نحل، ومن إلى ذباب، ومن إلى جعليات. بل إن منهم من يحملون فوق ظهورهم أناسًا نيامًا ويقولون إنه الحلم».

,BERNARDINO DE SAHAGUN

Historia general de las cosas de Nueva España

يخيم الليل، فتستيقظ ذكرى الأقوام الرحل، ذكرى أقوام الصحراء، وأقوام البحر. تلك هي الذكرى التي تستحوذ على الفتاة اليافعة وهي تدخل الحياة، وهي عبقريتها. الفتاة تحمل في نفسها، من غير أن تدري حقًا ذاكرة رامبو، وكيروواك، وحلم جاك لندن، ولعلها تحمل كذلك وجة جون جوني، وحياة مول فلاندرز، ونظرة نادجا الشاردة في شوارع باريس.

الحقيقة أن دخول عالم الكبار أمر عسير، عندما تكون كل الطرق تقود إلى الحدود نفسها، وتكون السماء نائية قصية، والأشجار عمياء بلا عيون، والأنهار العظيمة مغمورة بطبقات من الإسمنت الرمادي، والحيوانات يلجمها الصمت عن الكلام، ويفقد بنو البشر أنفسهم لغة الإشارات.

الفتاة ذات الخمس عشرة تصعد في تؤدة الطريق التي تقودها كل صباح إلى الثانوية، وسط الأجراف التي تعمرها البنايات، وفي خضم من ضجيج الشاحنات، والسيارات الغادية الرائحة. تفكر : ربما أصل اليوم إلى قمة المرتفع، وإن هي إلا خطوة واحدة ولا يعود على الجانب الآخر من شيء ما عدا حفرة كبيرة جُعلت في الأرض.

الفتاة ذات الخمس عشرة تمشي وسط الحشد في الظهيرة، فكأنها لم تترك المدرسة إلا ساعات، ساعات معدودة اختلستها من أستاذ الرياضيات، أو من أستاذ العلوم الطبيعية، أو أستاذ التاريخ والجغرافيا، لاقتناص مغامرة، وأنها استقلت قطارًا كبيرًا صدفًا، قد تكون قفزت إليه أثناء ما كان يسير، فقادها إلى الطرف الآخر من الأرض. لقد انتهى بها حقًا إلى التخوم، إلى الهاقر، أو إلى روتردام، وربما حملها إلى يوكوهاما. فهي تمشي، وتبحث في الأعين التي تلتقي بنظراتها عن شيء ما، نشوة، أو ألق جديد، يكون يستبق الابتسامة، وعن الكلمات التي تحملها إلى حياة جديدة.

أو في منتصف الليل، وهي لابسة معطفها الجلدي المشترى من محل

الخردوات، والذي يحمل في ياقته علامة «SCHOTT». الليلة الباردة قشعريرة على جلدها والليل يأتلق في عينيها السوداوين، الليل يزدحم بالأضواء والنجوم، وإشارات المرور، وأسماء مكتوبة بالنيون عجيبة وغريبة، أسماء خطرة، أسماء تزمجر من أغوار الحياة وتقول :

CHANGE

Maccari & Franco

HASARD

LOCUST

SOLEDAD

قلبها يخفق على إيقاع الكلمات، القصية والأنغام الخرقاء. الفتاة ذات الخمس عشرة تمشي وحيدة في الليل تبحث عن صورة، أو شعاع، أو ألق. وفي دخيلتها يكمن ذلك الفراغ، وتلك النافذة التي تطقطق، وريح تضفر وخفاش يلامسها، وقلبها الذي يخفق... يخفق... وهي لا تعرف عم تبحث. لماذا تتجوّف الموجة، من فوق المدينة، وتُشرع أبواب الأفق اللامتناهية، إلى ما هو أبعد من الساحات، وأبعد من الشوارع الكبرى المحيطة بالمدينة. ماذا هنالك، على الجانب الآخر؟ وهل الأناسي هنالك لا يذوقون الموت؟

لكن ذكرى أزمنة الزحل أقوى من كل شيء. فهي في كل مساء تجعل قلب الفتاة يخفق، وتخزّ منها البطن. ذكرى أزمنة أراباهو، والشايين، ولاكوتا، وتكساس. وقتها لم يكن من أسوار، ولا أسماء. ولم يكن من أرقام. لم يكن من رخصة، ولا ملف مركزي بيد الشرطة، ولم يكن من دفاتر للأسرة، ولا عقود موثقة، ولا أوسام مخيفة على الذراعين وتحت صفحات الأرجل، ولا كان وجود للثقوب التي تخلفها الحقن على المفاصد، لم يكن وجود لهذه الأشياء كلها، ولا للطوابع البريدية، ولا للصور، ولا لبصمات الإبهام، ولا للأساور البلاستكية تُجعل في معاصم المواليد وفي أرجل الأموات.

وقتها كان القمر يرتفع هائلًا فوق الجبال، يدفعه عواء الذئاب. كان الليل شابًا فتيًا، فهو يطوف العالم في لمح البصر، كان هائلًا وبارزًا، فكانت تلتمع له حدقات الآلهة.

تمشي الفتاة ذات الخمس عشرة صوب المفارق - إنها تحس بالليل على صدغيها، ملتصقًا بوجنتيها، وضاغطًا براحتيه الباردتين على أجفانها. وتسمع صوت خطاها يتصادى في أغوار جسدها، لا تعرف عم تبحث، ولا أي شيء يأتي ليأخذها.

ربما يترصدها شخص ما في كنف الظلمة، وفي زوايا الأبواب، أو في

جوف أقنية العمارات. وفي البعيد، ينساب بساط الطرقات الحمراء، أشبه بطفح بركاني. تتصادم صرخات الأمواج الهرتزية وتتصادى، حيوانات مجنونة وصرخات الكلمات من جوف الفضاء، ومن غور التاريخ. شخص ما يدفعها في هذه الطريق، بالضغط براحتيه على كتفيها، شخص ما يدفعها، وهي لا تعلم أين تنفتح بوابة الليل.

الأطفال يحلمون متكورين؛ إنهم قنافذ الشتاء. الأطفال يصيخون السمع إلى زئير النمور وعواء الذئاب إنهم يتذكرون جيدًا. أليس تكمن في أقبية المباني كلاب العالم السفلي، كما، في قديم الزمان، الأرانب آكلة الأموات؟ ألا يُسمع وسط الساحات المربعة حيث ينساب الليل وقْعُ ركض الرُّحل آكلي الجياد، بسيوفهم المتلامعة تحت ضوء القمر ورماحهم المزينة بشرائط، المسددة إلى النجم الشعرى؟ إن أنفاسهم ما تحس على وجهها، وبرودة نظراتهم، وفي قلبها يخفق إيقاع ركضهم، وخيولهم الليلية ومداعباتهم كالعشب تحت الريح.

والفتاة لكي ترى هذا، وتسمعه، تخرج من غرفتها في منتصف الليل، وتلبس الدجين اللصوق، والمعطف الجلدي؛ فتلك شكّتها، وتتسلل بطول الميزاب، وتهرب من حفرة طفولتها بالغة النعومة، ومن العش الوردي، ومن الوسادة المزركشة، وأنفاس طفولتها، وصور وألبومات ميكي، والقواقع الملتقطة من على الشواطىء، البليلة من المطر، وحبات الكرز، تهرب من النعاس الذي يجري أشبه بخُييط نهري في غاية الهدوء.

إنها تمضي مبتعدة، لأن هنالك، أمامها مباشرة، عند نهاية الطريق التي تقود إلى الثانوية، قد انفغرت حقًا، على حين غرة، حفرةٌ مجهولة؛ فهي تدعوها، وتلك الأسماء، تلك الأسماء الخطرة، التي تقول :

MARB MEMO Emporio

Auvers-sur-Ois

RIVE

Saturne

وإن كل واحدة من هذه الكلمات سن، سر مكنون ولحظة منطلقة، وثابة، منبجسة، تتأهب لتعض، برق.

الليل البارد قشعريرة على جلدها. الليل لباس لها. والسماء ملتصقة بالأرض، وشفرتا المقص تحلان عُقد الأنسجة، وتقطعان رباطات أحزمة الأحذية، وحلقات الأحزمة. الليل عارٍ. سقطت الحواجز، والشارات والأعلام والكتب المنمقة، والمدونات التي قُيدت عليها قوانين بني البشر. فالليل يطويها ويمحوها. المدينة تتجوف كموجة تتكسر. تتعرى قواعد المباني،

وتُسفِر عن أشياء حمراء متلامعة، أحشاء. صمت يقتل عقارب الساعات. وبرد ينفذ إليها؛ ينفذ إليك، رأس هوة.

تحس الصبية ذات الخمس عشرة بالليل على وجهها وعلى جلد بطنها، وعلى صدرها، فتنتصب كل شعرة فيه. فكل سم في جلدها عين؛ فهي تحس بكل تلك النجوم وكل تلك الكلمات، وكل تلك النظرات التي تنتظرها. من اليسار، ومن اليمين، تمتد الأيدي فيما هي تمر، فتسمع قلبها يقفز في وسط المكان، في حلقها، وفي عقلها، وتحس باللسان يتحدرج بين فخذيها، وحتى القرارة، حتى النقطة الأشد سخونة، والأشد سرية، والأشد إيلامًا، النقطة التي منها تبتدئ الحياة، النقطة التي تشجها بأمها، وبجذتها النقطة في وسط بطنها، التي منها يدفُق الدم دون انقطاع.

إنها لا تعرف ما الذاكرة. فليس خلفها شيء، ولا في اسمها شيء، ولا في ريقها شيء. ليس غير تلك النقطة التي تختلج وتنقبض، ثم تعود لتختلج. ويُسمع لليل صرير على بصمات أصابعها.

لا تعرف من يتعقبها، ولا ما سوف يحدث بعد. ربما تسمع الموسيقى، آتية من مكان قصي. امرأة سوداء تصرخ في الليل، فيتمزق بطنها، ويلقي على الأرض بطفل أحمر يلمع كنجم. ثم يسيل اللبن من ثدييها، وينتشر راسمًا سبيلًا بيضاء في الأفق، ويجري في ثغر الصغير النابض بالحياة. وتطول الساعات، حتى النهار. وعندما تبزغ الشمس حارقة، تكون القافلة قد بدأت مسيرها، برجالها كالحي الوجوه، وأطفالها وقد باتوا شيوخًا، وينوحون كالولدان. وفي السماء جوارح، وغريرات وثعالب تتقاسم المشيمة بعد أن انتشلتها من الأرض.

إنها تمشي في الليل، في ثيابها الضيقة، وقد تصلّبت عيناها. المدينة تنشق كموجة تتكسر. والشر يلوح في كل مكان؛ إنه يجول في أروقة الفنادق الرخيصة، وفي صالونات الأثرياء. وعلى الشاشات العظيمة ترى أعضاء النساء فاغرة كصحون طينية. «اسرق!»، «حطم!»، «خذ!» «استمتع!»، «ابحث!». الكلمات أحادية المقطع تنبثق من قلب المدينة المتمتم، وتنطلق صوب الهوامش، تركض كحيوانات، تئز وتصرخ، كالبهائم تُساق إلى المسالخ.

في الليل، تخاف الفتاة ذات الخمس عشرة؛ فهي تسمع صوت خطاها، وتحس بالنفس على جلدها. لكنها تواصل سيرها، دون أن تعرف عمّ تبحث، ولا من يبحث عنها. ربما كان اسمًا، أو يدًا، أو رائحة ولد، أو صوتًا يغوص حتى تلك النقطة الحارقة التي تلحمها بالعالم.

تلك مضاءة كبيرة تحت القمر. الليل يلتمع فوق الجليد. تجمد عواء

الذئاب، فهو يعلق بأخطامها بلورات من صبر. ومن الموضع حيث تقف الفتاة ذات الخمس عشرة تستطيع أن ترى قلب المدينة الأحمر القاني. وأما السماء فخفية لا ترى إنها لهث. لا وجود لشياطين. ولا لموتى أحياء. بل قتلة ومتخدرون. لكن لم يتغير شيء. الأقوام الرحل، والأقوام ساكنة صحاري الرمل، وصحاري البحر، الأقوام السائرة في السبل تحت السحب النائهة، ترسم بآثار أقدامها دوائر من حجارة، ومن قطرات النحاس على الجلد - الأقوام المتقنعة بصور الظباء، والمتجنحة من الفراشات خرجوا من الحلم الذي كان يحتويها.

ينبغي للفتاة ذات الخمس عشرة أن تدخل في الحياة بعد أن تركت غرفتها. وهي تعلم. إنها تراهم، وتسمعهم. إنهم في جوفها. يخرجون من نظرتها. إنهم مخلوقات من صنعها. وهي لا تملك معرفة، ولا ذاكرة. جسدها صلب كالليل، وعيناها، وتهداها، وكتفاها، وشعرها المنسدل كنهر أسود. إنها تجري خارجًا، ممتطية كلمات رامبو، وتمضي تستبق ما ينظر إليها، تمضي صوب ما يدعوها. في بطنها الجوع هائل عظيم؛ جوع إلى الحياة، وإلى أن تمسك، وإلى أن يمسك بها، وإلى أن تولد، وأن تلد. تصيخ السمع في الليل إلى صرير القياثير الرديئة، وهي تعزف الميخورانا والمالاغينيا، وتقول اسمها وتعيده، مرة بعد أخرى. إنها هي. إنها تنتمي إلى الأقوام الرحل القديمة، وإلى الأقوام التي استوطنت صحاري البحر والرمل، وإلى الأقوام التي سكنت الكهوف والأودية، وإلى الأقوام التي آوت إلى الغابات والأنهار.

إنها تتسلل في الليل حرة طليقة. وتمضي.

فندق العزلة

كانت ذكرى حياة أخرى، بالنسبة لإيفا، وزمنًا بلا حدود. لقد أمضت حياتها كلها في الفندق. فهي تسافر على متن القوارب المغامرة في البحار، ما بين البندقية والإسكندرية أو في بحر كورتيس، ما بين توبولوبامبو ولابات. لقد خبرت كل شيء؛ الحب والفرح في زمن الاحتفالات والثراء والشهرة التي كأنها دخان. ثم إذا كل شيء قد ذاب في ما بين مدينة ومدينة، وفي خضم من الحفلات الرخيصة والعشاق المتصنعين. والآن، وقد صارت امرأة عجوزًا، لم يعد لها غير ثراء الذكريات.

كان في تلك الغرف الفندقية، الباذخة أحيانًا، والمقززة أحيانًا أخرى، شيء ما رائع ومؤلم معًا، أشبه بالانعكاس المفرط للحياة. إنها المغامرة التي لم يكن لشيء أن يوقفها وحرقة الحب التي ما عاد لها وجود، وامحاء الوجوه وانسحاب متواصل من العالم، ومرارة عذبة لذيذة. والآن وهي في هذه الغرفة، في فندق المونييكار، الذي كأنما هي من اصطنعت له ذلك الاسم؛ تلك الغرفة التي قُدّرت لها منذ البداية، تستذكر كل ما عرفت، وكل ما عاشت. وكان أكثر ما تحب أن تنغمر عند أسفل السلالم، بعد أن تجتاز الساس في جلبة المدن. كانت جميعها مختلفة عن بعضها، لكن شديدة شبه ببعضها (ضجيج العربات ذات الأحصنة في ميريدا والحشد في القسطنطينية، والزمجرة في طوكيو). وكانت ثبقي الكتب نفسها مفتوحة على الطاولة، حتى لا تضل سبيلها. ففي كل يوم تقلب صفحة من «انطباعات من إفريقيا» ومن «نادجا»، أو من «أشعار»، كأنما لتطرد الموت. لأنها كانت تفكر في رايمون روسيل دون سواه، في جسده البارد الذي غزته الآن التجاعيد، والذي يحمله النوم بعيدًا، من أجل أن تظل الغرفة ملساء صقيلة على الدوام، وأبعد ما تكون على الدوام عن الواقع. كانت تفكر في الشاب المونتيقيدي، في وجهه الملائكي المنزوف، المنقلب في الغرفة المجهولة. كانت تحلم، وهي مستلقية على السرير الذي يتسع لشخصين، فيما تنظر إلى السقف الذي يرسم عليه دخان سجائرها أحرفًا ملتبسة.

إنها ذكرى عالم آخر، عبرته من غير أن تراه، مبهورة العينين بالمرايا. ههنا استشعرت، لأول مرة، الخطر الكامن في تفاهة الديكور؛ تلك الستائر النيلون المعلقة بشبابيك القطارات، وتلك المصابيح الجدارية، وتلك الصور التي تظهر عليها طواحين للهواء، وأنهار، وسفن. والآن وقد انقضى كل شيء (وأصبحت هي نفسها في منجاة من كل شيء)، لم يتبق غير

فشعريرة لذيذة من الأخطار، وذلك القرع الخفيف على الباب، كأنه إشارة غرامية إلى موعد عند الغروب. فكانت تنهض في غير ما تعجل، وتمشي حافية القدمين على البلاط، حتى الباب. «شايك، آنستي». كان الصبي في الطابق الأول يشبه ناثان، فقد كانت له كمثل عينيه اللوزيتين، المؤتلقتين بنور عذب وقاس معًا. كان يضع الصينية على الطاولة الواطئة، بجوار النافذة، ثم ينصرف وهو يشد يده على بعض الأوراق النقدية. وإذا، فما عاد شيء يتطلب العجلة، وما عاد يُطلب منها شيء، في ما عدا ثمن العزلة. فهو المال الوحيد الذي حصلت عليه من الحياة في مقابل سرابات جسدها، وصوتها، والرغبة التي كان الرجال يخالون أنهم يطالعونها في نظرتها.

كانت إيفا تتذكر تلك الأيام في فندق واشنطن، في كولون، وهي بصحبة ناثان؛ تلك الأيام التي أمضياها ينظران إلى البحر، وإلى السفن الراسية في عرض البحر في انتظار أن تعبر القناة. وقد يغامران معًا بالذهاب إلى أزقة المدينة السوداء، فينصتان إلى الأجواق تعزف «البندين» وينظران إلى العجائز يرقصن عند أبواب المعابد، وأمام المثلثات الملتهبة وقرابين الفاكهة. ثم يعودان مع الفجر فيكون الفندق الكبير أشبه بسفينة خشبية، تصرُّ في ريح المحيط، وهي تتأهب لاجتياز المضيق. وسنين بعد توفي ناثان، فلم تغد إلى كولون بعدُ أبدًا. كانت، إذ هي في بوينس آيرس، تنظر من بهو جناحها، في فندق ريبولوسيون، إلى حشد السيارات، وتسمع ضجات الحوادث، وصافرات الشرطة. أو تتسكع في الشوارع، إلى أن تجيء إلى تلك الحانة كوريينتس، فكأنما كانت تقصدها لملاقاة أونيتي أو وهي في كوليما، في فندق كازينو، تحت المراوح، في المدخل الطويل، المزين بالنباتات البلاستيكية، فكانت تنتظر عبثًا أن يطالعها خيال رولفو، النقيل، المتردد قليلًا.

فماذا تبقى ههنا، في المونيبكار (كوستا باناناس)؟ إن ما تبقى في تلك الغرف كلها، وفي تلك الصالونات، وفي تلك الحانات، وتلك الأبهاء، هو الزمن الذي لم تفلح في أن تقبض عليه وتأسره. فكانت تؤثر أن تنسق في آنية للحساء فاكهةً، أو تفاحة، بدل أن تضع فيها صورًا وتحفًا، وتجعل تنظر إلى تلك الفاكهة، وإلى تلك التفاحة، وهي تذبل وتشيخ يتوالي الأيام، مثلما يذبل ويشيخ وجه امرأة.

تجمعها أحاديث طائشة بالبواب، والحارس الليلي. «هل ستمكثين معنا وقتًا طويلًا، آنستي؟» - «هل تحبينني كثيرًا؟». «ستمطر عن قريب، إنه الفصل الميت». - «فصلي، إذًا». وإن أكثر ما أحبت كانت تلك المدن التي

تعيش على إيقاع المسافرين : تشيشستر، وإتريتات، وبياريتز، وسيراقوسة وطنجة، والإسكندرية. ههنا، في المونييكار، فندق العزلة ما عادت إيفا تملك شيئا، ولا عاد بيدها من المال ما به تسد رمقها. ليس غير تلك الذكريات السعيدة، وتوهُم العودة الأبدية، ويقينها الواضح بضرورة أن ترحل عن قريب وإلى الأبد. لا خيار. فكذلك هو مقدر. وإن هي إلا بضع طرقات خفيفة على باب الغرفة، والصمت، ثم جسد بارد - قد بدأت تغزوه التجاعيد، يحمل صوب النسيان. وعلى السلّم الملاك المتشح بالبياض، ينظر بعينيه الذابلتين القاسيتين. وفوق إسكملة منسية شاي لغير ما شارب.

ثلاث مغامرات

سو

يوم أتمت سو سنواتها الست عشرة رحلت عن بيت والديها. كانت تقطن مدينة صغيرة في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة، ولتكن مولين، لا تزيد عن شارع أوسط قد ضم مجمعًا عصريًا، ومتاجر لأدوات الصيد، ومطعمًا به مقهى وحانة، هو السيتي هول، وثانوية، وعلى طرفي ذلك الشارع محطتان لخدمة السيارات، شيفرون على جانب وشامروك على آخر، إحداهما مختصة بتصليح العجلات والأخرى بميكانيكا الآلات الفلاحية جون ديير. في هذه المدينة ولدت، وفيها أمضت سنواتها الست عشرة بين بيت والديها (الذي لم يُبدَل فيه غير لون الموكيت مرة واحدة) وثانوية سان جون. كانت لها صديقات. وفي سن الثالثة عشرة، عندما أدركها البلوغ، شرعت تخرج رفقة بعض الأولاد. فلم يتحمل والدها الأمر، ولم يتحمل خاصة ذلك الولد المسمى إيدي، فقد كان يراه وقحًا، أشبه بأفاق. واتفق يومًا أن رماه بالشخص الذي لا يليق لشيء، فردت عليه سو فصفعها، لكن لم يكن ذلك هو السبب الذي لأجله قررت الرحيل. لقد كان بسبب من أن العالم كبير جدًا، وبولين صغيرة جدًا. وبسبب من ذلك الشارع الوحيد الموضوع فوق السهل كسبيل لأجل المخلوقات الفضائية، والضوضاء المصمة تبعثها القطارات التي تمر بالليل، في طريقها صوب المجهول. في ذلك الوقت كانت سو قد صارت كما عرفتها فتاة طويلة وقوية، شديدة سمرة، بنظرتها السديدة، وأسنانها المتناسقة. كانت تشبه أمها، لكن الحياة كانت قد أنهكت والديها، وإن لم يكن لديهما ما يشغل بالهما حقًا؛ كمثل ذلك النبات الذي يتجعد ويبيبس في رمشة العين.

لم تكن تنبس بشيء. ولا كانا هما الآخران يتفوهان بشيء. ولكن في اليوم الذي أتمت السادسة عشرة وبسبب الحكاية نفسها كالعادة، دمدم والدها : «إنك تكلفيننا غاليًا ويُفترض بك أن تبحثي عن عمل». فتناولت سو حقيبة ووضعت مدخراتها في جيب سروالها ورحلت. لم تفه بشيء لأحد ولا حتى لإيدي. فلم يكن لديها ما تقول. استقلّت حافلة غرايهوند إلى شيكاغو واتجهت ناحية الشرق، فهنالك يوجد العمل. عملت لسنة في فيلادلفيا نادلة في مقهى. واستطابت تلك الحياة، لكن عرضت لها مشكلات مع أحدهم، فأخذت حقيبتها مرة أخرى وتوجهت ناحية الجنوب، إلى أطلنطا. اشتغلت بكل الأعمال؛ فأمينة صندوق في مجمع عصري وحتى بائعة في مخبزة فرنسية. وعندما أتمت التاسعة عشرة، واجتمع لها شيء

من المدخرات، راودتها الرغبة أن تعود لترى والديها. فركبت حافلة غرايهوند، وفي ليلة واحدة وصلت إلى شيكاغو. انتظرت حتى الصباح الحافلة التي ستقلها إلى مولين. الانتظار شيء ممل دائما في تلك القاعات؛ فهنالك أشخاص يتقدمون نحوها، يريدون أن يعتدوا عليها، أو يتفوهون بترهات. لكنها صارت تعرف كيف تدافع عن نفسها. ففي أطلنتا أعطتها فتاة سوداء كانت تشتغل وإياها في المقهى الأداة لتدافع بها عن نفسها؛ تلك السكين تضعها في حقيبتها، بجانب السجائر. لكنها لم تُضطر يوما لاستعمالها. انطلقت الحافلة في الساعة ٨. وفي ٩,٢٥ وصلت إلى مولين. كانت تمطر. مشت في الشارع الكبير، كانت تتذكر كل شيء. الحقيقة أن لاشيء تغير. في ما عدا المقهى حيث كانت تلتقي إيدي؛ فقد صار متجرا لبيع الملبسات. اشترت شيئا من العلك، وعبرت الشارع بعد السيتي هول. كان بيت والديها الأبيض الصغير قائما في موضعه من ذلك المنحدر المعشوشب، بصنوبره الأزرق المحترق من جراء السماد. سمعت صوت التلفاز آتيا من المطبخ؛ هنالك حيث تشرب والدتها قهوتها وهي تلف شعرها بالمجاعد. عندما قرعت على الباب ارتفع نباح مسعور من جانبه الآخر، ففكرت سو : «عجبا؟ هل اتخذا لهما الآن كلبا؟». قال صوت : «من هناك؟». لم يكن صوت أمها. فأفصحت سو عن اسمها واسم أبويها. ردت المرأة من خلف الباب أن أولئك الناس قد رحلوا منذ عام وزيادة، ولم يتركوا لهم عنوانا. ولاأحد يعرف إلى أين مضوا. تمشت سو لبعض الوقت في الشوارع، وهي لا تدري ماذا تصنع. وقد كانت تمطر. لم يعد لها على أي حال ما تفعل في ذلك المكان. فعادت إلى محطة الحافلات، وركبت واحدة إلى شيكاغو. ومن هناك عاودت الرحيل باتجاه الجنوب.

روزا

عندما كانت روزا صبية، وهي في زامورا (بولاية ميشيغان، في المكسيك)، أدركت، في وقت مبكر جدا أنها لاتشبه الجميع. كان معها في ثانوية الراهبات صبايا أخريات يلبسن كمثل زيها، المتألف من تنورة وصدرة كحليتين وجوارب بيضاء قصيرة، وقميص رمادي. لكنهن لم يكن ينتمين إلى العالم الواحد. كانت بينهن المسماة هيرناندیث والمسماة أسيبيدو، والمسماة غوتييريث والمسماة لوبيث وأيالا. وكن جميعا بين من تسمى ليتي ومن تسمى شابيلا ومن تسمى لوردز، وأراسيلي، وحتى باربارا أو كاثي عندما يكون الأبوان قد ذهبا للاستحمام في النهر الكبير. لم تكن روزا تؤاخذهن بكونهن كذلك، فلم تشعر نحوهما بشفقة ولا ضغينة. لكنها لم تشعر نحوهن بتعاطف أيضا. لم تكن تقدر أن تنسى. فقد ظلت عماتها

يكررن على مسامعها : لاتفعلي هذا، لا تفعلي ذاك. أنت بيردوسكية. فلا ينبغي لك أن تقولي هذا، فالفتاة البيردوسكية لا تتكلم هكذا. والذين كانت تنظر إليهم برغبة بعد المدرسة كانوا أولئك الأطفال الذين يركضون للعب في الزوكالو أو الذين كانوا يتجمعون مساء أمام الحديقة الصغيرة في كنيسة سان فرانسيسكو ليمصوا قصب السكر والملبسات بالفُليفلة. أولئك الذين كانت تراقبهم خاصة، من خلال الفساتين السوداء للعفات كانوا هم الأطفال البائسون في الأسمال الذين يركضون في الشوارع كالقطط المتوحشة والشرطة في أعقابهم. الأطفال اللصوص، النهابون. «أوباش! بذرة مجرمين»ــ كان يقول والدها. وقد كان يتفق لأحدهم أن يمر أحيانًا أمام روزا، والشرطة تمسك بذراعه بوجهه المسود ونظرته الحادة كسكين، لتقتاده إلى حيث لا يعلم أحد، فتودعه السجن هنالك في المكسيك، عاصمة كل الشرور. وهكذا تولدت لديها تلك الفكرة. لم تخبر أحدًا بالأمر، لكنها كانت دائمة التفكير فيها دون انقطاع. ثم صارت الفكرة تكبر في دخائلها، وتزداد قوة ورسوخًا. ذات يوم سيكون لها أطفال. لن يكون لديها أطفال كأطفال الفلاك أو أطفال الموثقين ولن يكون لها من الأطفال من سيصيرون أطباء، وصيادلة، أو باعة لتوت الأرض. كلا، بل سيكون أطفالها من أولئك النهابين الصغار، ذوي الوجوه المسودة المشعثين والمرضى أشبه بقطط ضالة؛ أولئك الأطفال الذين لا يلهجون بغير البذاءات والشتائم، المجترئين على الكذب، والسرقة وحتى القتل.

في السن التي تكون الفتاة تبحث عن زوج، كانت روزا تبحث عن الأطفال المشردين. فقامت بإيواء عشرة منهم في بيت عتيق، عند سافلة الطريق، فعشرين، ثم خمسين. وها إنهم قد أصبحوا اليوم فوق الثلاثمائة. وقد قامت على تعليم كل واحد منهم، ومنحته ما به يطعم ويكتسي، ومكانًا في تلك الجمهورية التي أنشأتها للأطفال. علمتهم مهنًا ولقنتهم حسن التصرف والمسؤولية. وأعطت كل واحد منهم اسمًا ذلك الاسم بيردوثكو، النفيس، النادر. ذلك الاسم، شديد القوة وبالغ الثراء. إن روزا هي الأم الوحيدة لتلك العائلة من الصبية، الذين قُذف بهم إلى أرصفة المكسيك، وموريليا وغوادالاخارا. أولئك اللصوص، تلك «البذرة الإجرامية». أولئك المتنشقون مسحوق الغراء، الذين تلتقطهم الشرطة كما تُلتقط الكلاب الضالة، ثم يخرجون من السجن ليدخلوا في «الأسرة الكبيرة». معهم لا تخشى روزا على نفسها أحدًا. فإذا أعوزتها النقود، كانت تجوب شوارع بلدات باخيو بشاحنتها الصغيرة، وتجعل تنادي في مكبر الصوت بأسماء أولئك الذين لم يدفعوا أولئك البنديخوس، أولئك

البورجوازيين البخلاء. وفي أيام الاحتفالات الوطنية كان أطفال روزا المنبوذون يسيرون متتابعين في الشوارع بأزيائهم الباهتة. فهل تتذكر روزا وقت أن كانت تراقب الأطفال الضائعين، من خلال فساتين عماتها السوداء، وهل تُراها تتذكر عزمها، وتلك القوة التي تولدت في نفسها، ولم تفارقها أبدًا؟

أليس

ولدت أليس في أواخر القرن الماضي، لأسرة ثرية ومتكافلة. لقد أحبت أبويها أكثر مما قد تحب شخصًا آخر. فأما أمها فكانت امرأة شديدة التأنق، وشديدة التكتم، وأما أبوها فكان رجلًا نحيفًا، وعنيدًا، وكان في غاية الطيبوبة وفي غاية التكتم. وقد كانت أليس لا تزال بعدُ صغيرة يوم أن وقع الانهيار. كانت تعيش في موريس، في منأى عن زمجرة الحرب العالمية الأولى، فكأنما تعيش في عالم آخر. ثم شرع إخوة أليس يرحلون تباعًا. مضوا ليدرسوا، من في لندن، ومن في باريس. سافروا. وتزوجوا في الأماكن القصية. وأما أليس فقد مكثت في الجزيرة. كانت هنالك أختها الواهنة المريضة. وكان هنالك أبوها وأمها، شديدا الرقة وشديدا العطب. وبعد الانهيار التجأوا إلى بيت نزه، على مقربة من فوبنكس، فوق مرتفع ماطر. كانت أليس مقبلة على الحياة، تعيش بالفكر وتهوى الشعر. كانت أكثر من ذكية. لقد كانت لامعة. فإذا تحدثت عن ذلك الشباب، الذي انقضى سريعًا قالت : «كنا نتواعد، وكان لنا أحبة». وتقول أيضًا : «الذهاب إلى فرنسا كان حلمًا». غير أنها كانت قد رسخ في ذهنها منذ ذلك الحين أنها لن تستطيع أن تحيا كما يحيا سائر الخلق. شيء وعته منذ أن كانت صبية. فهي لن تتزوج، ولن يكون لها أبناء. هي التي كانت تتوق إلى الإفلات من تلك الجزيرة، لتعرف العالم وترى باريس، وتسكر من ذلك الحفل الفكري الذي كانت تتصوره هنالك، في خضم من المآثر التاريخية، والمتاحف والحدائق والموسيقى. وسرعان ما أدركت أن الأمر لن يكون سوى حلم. فالحياة لعبة وجه وقفا. لقد خاب مسعاها. شيء لن يكون بمقدورها أن تتجاهله. الحياة : أختها وأبواها، وذلك العالم الهش العطوب الذي هي عليه الحارسة الوحيدة. لم تكن أليس لتستطيع أن تعيش حلمها، لذلك اختارت ألا تتبرم بمصيرها، ولو لبرهة من سعادة. الأخريات سيعرفن طعم السعادة. الأخريات سيحظين بأزواج، وسيرزقن أبناء. ستكون لهن بيوت تملؤها الضوضاء، والحركة، والرغبات العابرة، والحفلات. من ذا الذي قد يحقد على فتاة فقيرة ونبيهة، وشديدة الاختلاف؟ لقد أصبحت أليس تمثل في أعين الجميع الصورة التي كانت تريد أن يراها عليها الجميع تلك المرأة

الفارعة، النحيلة، بوجهها المتوفز، ونظرتها الكامدة النفاذة، ولباسها المتقشف على الدوام، والتي تعرف أن تتفوق على أبناء جيلها، أولئك الرجال والنساء التافهين في ضعفهم وبحثهم عن السعادة. وتصرمت السنون، من غير أن تنال من تلك الحمية، أو تنقص من حدة تلك النظرة. سنون الأزمة وجشع الأثرياء الذين لا يستنكفون أن يضحوا بالعالم لينقذوا أرباحهم، والحرب، والذعر الذي استولى على أولئك الذين ظلوا يرددون : «اليابانيون قادمون! إننا نرى سفنهم!». البؤس الذي يرسف فيه الصغار، والنساء المهجورات، والكلاب التي تنفق من الجوع، والتي كانت أليس تقاسمها القليل مما تملك. المريضات بالسرطان، اللائي تساعدهن أليس لتهون عليهن مرارة الموت. ثم توفي أبواها وكذلك توفيت أختها العزيزة عليها، من صنوف الحرمان الناجمة عن الحرب. لقد كانوا هم القسم الأرق في أليس وكانوا فرحها، والقلب الحنون الذي كان سرها الوحيد. بلي الناس من حول أليس، وأصبحوا بدورهم سريعي العطب. وفي ضعفهم كانت أليس تستطيع أن تتبين نصيبهم الرباني. العزلة القصوى كانت مكمن قوتها. فهي التي تحفظ لجسدها استقامته وقوته، وتحصنه من فعل السنين، وهي التي تمنح عينيها على الدوام بريق الحياة. إن الشرارة كامنة فيها، كمثل ينبوع ذلك الضوء الذي يسعفها أن تميز الجمال الخارق في تفاهات العالم، ولا تستنكف قط من البؤس الملازم للجنس البشري.

ليس من شك أن أليس هي أكثر من بلامس فؤادي من هؤلاء «المغامرات» الثلاث.

كلمة

أواه، يا كلمة، أيّ سبيل سلكت، لتنتهي بك إلى ذلك النهار من شهر يناير ١٩٨٦، وأنت ممددة عارية فوق رخام المشرحة البارد، يغطيك إزار أبيض، يبرز تكوّرات جسدك وتغوّراته، ويخفي وجهك إلى الجبين، ولا يبدي غير شعرك الأسود الفاحم، الكثيف، المتموج، الذي لا يزال يعتمل حياة، ورجليك المستقيمتين، المبرنقة أظافرهما، وقد شُدت إلى عرقوب اليسرى بطاقة ملدنة، بسلك، مبين عليها اسمك، وسنك، وبلدك الأصلي، وتاريخ وفاتك. ذلك النزر من الكلمات والأرقام الذي عرف عنك الرجال؟

من يتذكرك، عندما وصلت على متن السفينة، إلى ميناء مارسيليا؟ كان الطقس بارذا، وربما كنت ترتدين يومها كذلك كنزتين صوفيتين فوق بعضهما، من تحت المعطف الواقي، وأنت تحت المطر الخفيف الذي يتساقط على الأرصفة وبنايات الجمرك. كان ذلك منذ حوالي السنتين، وقد كان زمنا كأنه الأبدية بالنسبة إليك، سنتان من الطول حتى لكأنها حياة كاملة، وحتى إن ذلك الوصول فوق الرصيف، المكتنف بالضباب، قد امحى واختلط بالسنين الأولى من حياتك، هنالك، على الجانب الآخر من البحر.

هذه المدينة البيضاء، الكبيرة، على ساحل البحر بضجيج شوارعها، وحركة الحشد السائر فيها، والأسواق المكشوفة؛ حيث يتسكع الأطفال، والماعز، والملتقيات المكتظة بالشاحنات، والعربات، وسيارات الأجرة، ورائحة الأطعمة، والزيت الساخن، والسمك المقلي، ورائحة الفواكه النتنة.

ولاشك أنك كنت تتذكرينها أحيانًا، في خضم البرد في ذلك الطريق البحري الطويل، بسياراته، الآلاف من السيارات التي تمر أمامك، ونظرات الناس العابرة، وضجيج المحركات. بين الفينة والأخرى تتمهل سيارة، فتتبعينها بنظراتك، فإذا هي تنعطف يمينًا على طريق فلان أو علان ثم تعود بعد دقائق لتمر من أمامك. أفلا تكون المدن كلها شبيهة ببعضها؟ فهي شوارع، وملتقيات، وسيارات تتقدم ونظرات تبحث.

الشتاء، كان قاسيًا عليك. فكنت ترتدين كنزتين فوق بعضهما، وقد ترتدين أحيانًا ثلاث كنزات، ثقيلة، من الصوف الخالص، مرفوعة الياقة. ثم تجعلين من فوقها كلها تلك الكنزة الصوفية، ذات اللونين البنفسجي والأسود والياقة الكبيرة الملفوفة، التي تنفرج قليلًا، فتسبغ على جلدك ذلك اللون العنبري الساخن، لون الخبز المعجون بالبهارات، كما كان يقول صديقك برونو. وبرونو من الأنتيل. فجلده أسود يميل إلى الزرقة، فهذا كان يبعثه دائمًا على الضحك، لأنك، أنت الإفريقية، أفتح بشرة منه، ولك

شعر متموج، وطويل، وكثيف، كان لك شعر كشعر الهنود.

أشياء كنت تستمدينها من أمك، الكمبودية، بذلك أخبرت برونو. وقبل ذلك ربما كنت على علاقة عابرة بشخص أبيض كان تاجرًا إسبانيا، أو ربما برتغاليًا. كان يحب أن يقرأ فيك كل ما كنت تنطوين عليه، لقد كان بحق صديقك الودود، وكان يحب أن يطالع على جلدك كل ما كان يأتي من أقاصي الدنيا، من الصين، ومن أغوار إفريقيا ومن أوروبا الباردة أيضًا، في عينيك الشفافتين، وعلى عنقك الدقيق. كان يعمل عونًا في أحد المستشفيات. ربما كان هنالك عندما دخلت للمرة الأولى والوحيدة، محمولة على النقالة المتدحرجة، والدم الذي كان قد جف على صدرك، مشكلًا بقعة سوداء التصقت لها الكنزتان ببعضهما. قد يكون سمع دعابات الممرضين المعاونين، عندما جعلوا يسلخونك من جلودك الواحد تلو الآخر.

يومها فقد جلدك لونه العنبري، وفقدت الشمس ضياءها، وما بقي غير لون الموت، الرمادي، ولون الدم البالي الأسود.

كانت طريق طفولتك ما يطرق ذاكرتك، وأيام الوحدة والصباحات، عندما كنت تتناولين قهوتك في الحانة المتبغة قبالة الفندق المؤثث. لم يكن بالبعيد، ذلك الشارع. لم يكن يفصلك عنه غير ثلاث سنين، أو أربع، أو أكثر بقليل. لقد مرت السنون سريعًا، منذ أن جئت إلى مارسيليا، على متن السفينة القادمة من طنجة.

ثم كانت تلك الضوضاء، وذلك الحشد من الناس. جميع أولئك الأشخاص الذين «مروا من فوق بطنك» كما كنت تقولين ليس لبرونو؛ فهو لم يكن يتحدث في تلك الأمور أبدًا، بل للفتيات الأخريات، في حانة فوروم كاتي وجيزيل، ومادو، وسيلين، ورايسة، وهيلين، الأنتيلية، عندما كنتن تجتمعن على ضوء النيون في الشتاء، لتحتسين القهوة قبل أن تذهبن للانتظار على الأرصفة. كل ذلك الضجيج وتلك النظرات، وتلك الالتماعات التي كانت تنبعث من السيارات، وزمجرة المحركات واندعاك العجلات على الإسفلت.

وها إن جسدك الآن، في برودة المشرحة، جامد وعار، وصامت، تحت الإزار المتكمش بفعل الثلج. عيناك مغمضتان بشدة فكأن أجفانهما قد خيطت إلى بعضها وأنت ما عدت تعلمين بشيء عن العالم، عالمنا، إنك تبتعدين القهقرى، كأنك محمولة فوق طوف، في نهر من ثلج تبتعدين، وتفحمين. فماذا سيتبقى من العالم الآن؟ وأي ذكرى عن هذا القرن، وعن تلك المدينة؟ وتلك الطريق الكبيرة على ساحل البحر، وذلك الجدار من العمارات المنيعة، والخلجان الفارغة، والشرفات المقفرة، التي تضطرب غرنوقياتها إذا هبت عليها الريح والنخلات التي تأكلها أوكسيد الكاربون

وغبار البحر وذلك الشاطئ الهائل منتظم الحصى، حيث تسير النوارس النحيلة، وتلك السيارات التي لا نعرف لها أسماء، ولا أعداد، والمشدودة إلى بعضها، أشبه بقشور أفعى معدنية طويلة، لا تفتأ تنساب مهتزة إلى ما لانهاية.

أي ذكرى؟ تلك المدينة البيضاء؛ حيث كنت تنتظرين السفينة، وحيدة، وسط المهاجرين الآخرين، والعبور فوق الجسر في الهواء البارد لنهاية الصيف، والوصول تحت المطر، والرجل في مخفر الشرطة الذي يستنطقك، بنظرته التي كانت تقرأ أوراقك، ورسائل أختك التي كانت تعمل بفندق في مارسيليا، ووجه أختك، على الجانب الآخر من الزجاج، وجسدها وهي تضمك إليها، والخطوات الأولى في المدينة، تحت المطر، ليلًا، وقد بدأت ترين التماعات أضواء السيارات والمنبهات. ثم الوقت لاكتشاف ذلك العالم الجديد، وتلك الحياة الجديدة، واشتغالك في المطاعم، وفي المقاهي، ودوامة المال، والوحدة. وإذًا، فمن يومها عرفت أنك وقعت في المصيدة، وأنك لن تقدري بعدُ أن ترحلي، ولا أن تعودي إلى مدينتك، وإلى الساحة التي تغمرها الشمس، وإلى الأزقة التي تتصادى بأصوات المذابيع وزعيق الأطفال وأصوات الديكة المبحوحة. ربما تتذكرين أنها أثلجت ذلك الشتاء، أول شتاء، فكانت أول مرة تلمسين الثلج. عدوت في الشارع، كان اليوم أحدًا خرجت من الشقة الصغيرة في شارع جيني، وعدوت صوب الثكنات، مررت من تحت قنطرة السكة الحديدية ومضيت حتى مصنع التبغ، لتتفرجي على الندف وهي تتطاير في ضوء مصابيح السيارات. كنت تحسين بالبرد الشديد، فارتديت كنزات كثيرة فوق بعضها، وجعلت تركضين في الشارع المقفر، لتشعري بشكات الندف على وجنتيك، وعلى أجفانك. كانت المرة الأولى.

لم تشعري بذلك من بعد أبدًا؛ أن تكوني فتية، وحرة وتكتشفي الثلج، وتتململي من ذلك الشيء البسيط جدًا والطبيعي جدًا. ثم رحلت أختك، فقد اختفت ذات يوم دون أن تترك كلمة، أو تترك عنوانًا، فقد وضعت أغراضها في حقيبة، ثم رحلت عن بيتها. فصرت وحيدة في العالم لكنك كنت قد صرت يومها لا تقدرين على الرجوع وما عدت تقدرين على الهرب. وعندما بدأت تخرجين مع الرجال، إلى الحانة، في حي المحطة، كان قد صار أمرًا مقدرًا ومكتوبًا، ولم يعد سبيل إلى تغييره. اصطادك القوادون وضربوك، اغتصبوك وضربوك داخل غرفة في فندق وسحقوا أعقاب سجائرهم على بطنك وعلى نهديك فارتسمت منها عليها علامات لا تمحي، كمثل ورود أحرقت على جلدك العنبري، علامات في قلبك راسخة لا تزول.

بعد ذلك لم يعد شيء يهم، ولا تغير بعد شيئا، إلا من أسماء الشوارع، وأسماء الحانات، وغرف الفنادق، وكان الشتاء قد أوشك على الانتهاء. وحين عاد الدفء فربما فكرت معظم وقتك كيف هي الحال هنالك، في مدينتك البيضاء، الضجيج والصياح في الساحة التي تهب عليها ريح الصحراء الحارقة، ونداء المؤذن في الضوء المذهب للمساء، والأطفال الذين كانوا يركضون في متاهات الأزقة والطيور، والزنابير من حول النوافير. ربما كانت تلك الأشياء تأتي مع ريح البحر التي تهب على الجسر العتيق، فتحسين أشبه برعدة حقى، فهي تنفذ إلى أغوار حياتك فتقلبها وتحتك بجلدك الذي صار اليوم شديد الصلابة، ومخدزا. لأجل الهرب من تلك الأشياء تركت تلك المدينة، وذهبت إلى الشمال، إلى تلك المدن الداخنة، القصية، الغريبة تلك المدن العملاقة التي تضم مئيلاتك بالآلاف، الفتيات الضائعات، والأطفال المفسدين، والأناس الذين جاءوا من كل الأماكن، ولا يعرفون لهم وجهات يولونها، لأجل ألا تسمعي بعد شيئا عن ساحتك، وعن شارعك المقير حيث وُلدت، وحيث عدوت مع إخوتك وأخواتك، ولكي لا تنتابك بعد تلك القشعريرة، أو تشعري بذلك الحفيف؟ لكنهم هم الذين اصطادوك، الأشخاص الذي ضربوك واغتصبوك وباعوك في غرف الفنادق، إنهم هم الذين ذهبوا بك إلى آخر الدنيا، إلى لندن، وإلى هامبورغ، وإلى ميونيخ. فصرت تلازمين الشارع لا تبرحينه يومًا، أو ليلة أو ساعة. كان الجو حارًا جدًا، وكان الحشد يسير يترنح بطول الأرصفة ويتزاحم من حول الفتيات. وفي الليل كانت المصابيح تحرق وجوههم. كان بعض الرجال يأتون دون أن يفوهوا بكلمة ويركبون خلفك، ويغوصون فيك كأنما يغوصون في لحم ميت، ثم ينصرفون دون أن يتبسوا بكلمة، وتبقى النقود. كم من الرجال عرفوك، يا كلمة؟ لكن في تلك الآلاف من المرات لم تكوني هناك، لقد كنت في مكان آخر، لم تكوني تحلمين، لقد كنت في جسد آخر. وربما كنت تعودين إلى هنالك أحيانًا، إلى شارعك الذي يغمره الغبار والضوء وإلى البيت الضيق من الألواح، والسقف القصديري الذي تشويه الشمس فكأنه لوح فرن، أو بجوار النافورة، حيث كانت الفتيات يتخلّعن بسيقانهن النحيلة وهن ينصتن إلى ضجيج الماء في سطول البلاستيك. ربما...

السنون تتناءى، وتنحلّ. فما عدت أنت التي ترحلين على متن تلك السفينة، عبر الأبيض المتوسط، صوب ميناء مارسيليا. بل مدينك حيث وُلدت، وحيك، وصديقاتك وأخوتك، وأمك؛ فهم من يقفون فوق سطح سفينة هائلة بيضاء ومتربة، تسير تبتعد صوب الأفق المضب، وتغير إلى

الجانب الآخر من العالم. إنهم يرحلون، وهم يحملون ميلادك، واسمك، وطفولتك، والأسرار، والضحكات والأغاني التي تنش في المذاييع، ورائحة القهوة والكزبرة رائحة الأسواق والماعز، رائحة الحياة. إنهم يرحلون ويتركونك. عرفت بذلك، ذات يوم. فقد اكتشفت أنك كنت وحيدة، ولم تعرفي لذلك سببًا. أدركت أنك لم تعد لك مدينة أو بلد، بل مجرد أوراق، ورخص للإقامة وبطائق، ومخالصات للكراء، ولاشيء سواها. ربما كان الأمر كأنك لم تولدي أبدًا، وكأن لم تكن لك من طفولة ولا من حي، بل مجرد أحلام. ربما كان الأمر كأنك ولدت ذات ليلة، بالصدفة، في شقة بشارع «جيني»، ذات ليلة من ليالي الشتاء، وكان الثلج تتطاير من حول المصابيح، بجانب البنايات المكونة لمصنع التبغ.

ثم هربت، وجئت إلى هذه المدينة. جئت إلى هنا لأنه آخر الدنيا، المحطة الأخيرة، المدينة الأبعد في البحر. كانت فتيات مارسيليا، وليون، وغولينكور، وباريس يقلن جميعًا إنهن سيذهبن إلى هناك ذات يوم، وإنهن سيهربن وسيذهبن إلى الساحل، وسيحيين حياة أخرى. وكذلك كنت تقولين أنت أيضًا، لكنك عندما هربت، لم تفكري في ذلك كله. لم يدر في خلدك أن ذلك سيغير حياتك. أردت بالفطرة أن تذهبي إلى البحر، أردت أن تكوني أقرب ما يكون إلى البحر، وكأنك كنت تخالين أن تلك السفينة التي حملتك من طنجة إلى مارسيليا كانت ستعود؛ السفينة نفسها، وسيكون بوسعك أن تركبيها لتعودي القهقرى، وتعودي مع الزمن حتى لتوشكين تلامسين الأفق، فتستعيدين ما فقدت. ربما كنت تؤمنين بذلك؟ أو ربما تكونين ركبت القطار من الشمال إلى الجنوب، لمجرد أن لم يكن هنالك قطار سواه؟

في هذه المدينة كانت تجول السيارات نفسها، والنظرات نفسها إليك تُصوب عندما تكونين واقفة، بين راذتين والريح التي تهب على وجهك. كان الطقس باردًا، وكانت الكنزات الخمس التي لبستها فوق بعضها تظهر صدرك هائلًا، عجيبًا. فكانت أيدي الرجال تتسلل من تحت ذلك الفرو، داخل السيارات بعد أن يزبحوا الملفات. وقد كنت حتى وأنت في غرفة الفندق «AAA»، لا تخلعين الكنزات. إن ما كنت تخشين هو البرد، برد الريح في الخارج، وتخشين خاصة البرد الذي ينفذ إلى الرئتين، فيحفر مغارة، ويقرض ويقتلع. هذا كان منذ وقت طويل، وقت أن وصلت. وذات مساء كانت الريح تهب على الشارع الكبير، عند ملتقى شارع ريومور. ففي الليل، كانت الريح قد بدأت تنفذ إليك، في غرفة الفندق، وصرت لا تقوين على المشي. كنت تسمعين صوت الهواء في رئتيك، أشبه بصوت الرمال

على الشاطئ. وكنت تسمعين صوت النار والبرد في جسدك. طال الأمر أياما، حتى أوشكت ذات ليلة تهلكين وحيدة داخل الغرفة. كنت تحسين الحياة وهي تتصرم. جعلت تضربين على الحائط، بكل ما أوتيت من قوة، من غير أن تصرخي، لأنك ما عدت يومها تقوين على الكلام ولا على الصراخ. وفي الأخير جاءت جارتك، ونقلوك إلى المستشفى، وإلى قاعة بيضاء كبيرة. في ذلك المكان قررت أن ترحلي. في تلك الغرفة الكبيرة المليئة بالأسرة، ونساء شاحبات ينتظرن أناسا يحملون إليهن وروذا وصحفا. كان برونو من يحمل الأدوية على عربة، ويحمل الغسيل والصحون. تحدثت وإياه عن الرحيل. لم يكن يعرف ماذا كنت تفعلين، في البداية. لم تشائي أن تخبريه؛ فكنت تدعين أنك كنت تعملين في مكان ما، في مستشفى، في الفيرودة مثلا. وعندما عرف، ضربك، لكنه لم يرحل. كان يأتي لزيارتك في المستشفى، أو كنت أنت التي تقصدينه في بيته، أحيانا في المساء. ثم كان أن رحلت وإياه، ذات يوم فركبتما القطار معا، إلى تلك المدينة الواقعة في آخر الدنيا. وكأن كل شيء سيتغير، وأنك ستستعيدين ذكرياتك عن مدينتك، وعن النافورة، وعن البيت الذي كانت فيه أمك تقلي السمك والأرز. لكن شيئا لم يتغير. مجرد أنك، ههنا عندما كنت تعودين إلى بيتك، في العمارة الجديدة، على طريق المطار، كان برونو ينتظرك. كان ينصت إلى موسيقى جزيرته، على شريط ممغنط. كان له صديق ملاكم، كان يأتي مع صديقته، واسمها جوسيف. لم يعد يضربك أحد ولم يعد أحد يأخذ النقود من حقيبتك. لقد كنت قريبة إلى البحر. لم تكوني تنتظرين إليه، ففي الصباح لا يكون شيء جميلا، وفي المساء ليس غير الأفعى المعدنية من السيارات فهي تلامس وجهك.

كان أول شتاء من الحرية، ربما. كنت تفكرين في ما سيتغير فيما كنت تضفرين شعرك في الشارع الكبير الذي تهب عليه الريح؛ في موضع، ملجأ، بعيد عن الضجيج، وبعيد عن الطرق. ليس في مدينتك؛ فلقد اختفت إلى الأبد. بل مجرد موضع، شقة لك حقا؛ حيث سيكون بوسعك أن تنامي. لن يرى أحد وجهك بعد. لن تنتظري شيئا بعد، ولن تكون بك حاجة بعد إلى أحد. برونو، ربما؟ لكن الرجال ليسوا سوى عابرين، وأنت تعلمين أنه سيرحل، وأنه سيمضي إلى موطنه في يوم من الأيام، على الجانب الآخر من المحيط، إلى بلد موسيقاه. لكنك فكرت في الأمر، على كل حال. وحلمت. هنالك بيت، وحديقة، وأصوات الأطفال، والضوء الذي يلتمع فوق أمواج البحر، ورائحة الفواكه، والأسماك وهي تهتز في الزيت الساخن. لن تجرؤي أبدا على أن تحدثيه في ذلك. عندما كان الملاكم يأتي، ويأخذان

يتحدثان في لغتهما الغريبة، كنت تعرفين جيدًا أن ذلك ليس ممكنًا وأنك لن تذهبي أبدًا إلى هناك رفقة برونو. وذات يوم، كنت تبكين داخل الغرفة؛ كنت قد شربت خمرًا، وتبكين. نظر إليك وقال : «ماذا دهاك؟ هل جننت؟». ما كنت لتقدري أبدًا أن تقولي له إنك كنت ترغبين في الرحيل وإياه، والذهاب إلى هناك. إن فتيات الشارع ليس لهن مستقبل. شيء لم تكوني تعلمينه حقًا. السفينة الكبيرة، التي رحلت القهقرى، حاملة معها كل شيء، ساحة مدينتك والأطفال الذين يركضون متصايحين، والروائح، والموسيقات، وسائر الأناس ذوي النظرات الصريحة؛ تلك السفينة الكبيرة لم تسلبك ميلادك وماضيك فحسب، يا كلمة. لقد أخذت مستقبلك أيضًا.

في ذلك الشارع الرهيب، الذي تهب عليه ريح الشتاء الباردة، تغدو السيارات وتروح. ما عاد للساعات حقيقة. فماذا تكون الساعة، عندما نجانس رجلًا لا نحبه لنأخذ نقوده؟ وذات مساء أخذ أحدهم منك حياتك. ربما جاء راجلًا. وربما يكون ترجل عن سيارة، فيما كان آخر ينتظره. مشى نحوك، في غير تعجّل. لم تلحظي وجهه، بسبب أضواء المصابيح وراءه. رجل. جاء نحوك، كأنما يريد أن يذهب بك وكأنه زبون. وقد تكونين تحدثت إليه، أو لم تزيدي على أن التفت نحوه، بجذعك المنتفخ، الذي كان يلوح بارزًا وسط السيارات المتوقفة. ثم وجه إليك طعنة قوية من أسفل إلى أعلى، وبسبب كثافة الصوف من كنزاتك الخمس، لم تنفذ السكين عميقًا في صدرك فصرخت. ظلت السيارات تسير خلفك، الحية المعدنية الطويلة العمياء، التي لا تفكر في شيء. وجه إليك الرجل طعنة تلو الأخرى، ومن القوة بحيث انثنى لها جسمك، وفي الطعنة الثالثة نفذ السكين إلى قلبك. جاءت الشرطة بعدئذ وسيارة الإسعاف التي حملتك إلى المستشفى، لكنك كنت قد فارقت الحياة. رحلت عن جسدك وعن جذعك، الذي كانت الكنزات غير المجدية فوقه قد امتلأت بدمك. الآن، هذه المدينة، وهذه الشوارع وهذا العالم بأسره، ما عادت بحاجة إليك يا كلمة. ابتعدت وتركت هذا العالم بأسره إلى نظامه، وإلى مؤامرته؛ هذا العالم الذي لا تزال الساحات فيه تضج بتوافيرها وفتياتها وصيحات الأجساد ونباح الكلاب والغبار الذي لا يفتأ يصعد وينزل دون انقطاع، يصعد ويهمد. وأما أنت، فما عاد لك هنالك وجود.

ريح الجنوب

ما عدت أذكر على وجه التحديد متى القيت مارامو لأول مرة. كنت حينها أخرج من الطفولة، وكانت هي قد صارت امرأة. كانت تسمى جيهان، لكن الناس كانوا ينادونها باسمها العائلي «ماوهي»: ريح الجنوب. وقد كنت وأبي وقتها نسكن ذلك البيت على شاطئ البحر، في بوناويا. كان يعمل طبيبًا في فندق ماماو. ثم افترق عن والدتي عندما كنت في سن السادسة أو السابعة. ما أتذكر منه ضحكه وصوته الشبيه بالغناء. وكانت هي سبب مجيء والدي ليتخذ مستقره في هذا المكان، ثم تركته لتتبع رجلًا أمريكيًا إلى لوس أنجلس. كان والدي يقول إنها رحلت لأنها ما عادت تجده مسليًا. ثم أزال كل ما من شأنه أن يذكره بوالدتي من رسائل وصور وأزال حتى الظرف التي كانت اشترتها. ومع ذلك فقد اتفق لي أن عثرت ذات يوم على صورة تعود إلى بداية زواجهما. وفيها يظهران فوق سطح المعدية، ومن حولهما بعض الناس. كانت تبدو قصيرة ونحيلة، وهي تقف إلى جانبه، بوجهها الآسيوي وشعرها النحاسي. احتفظت بالصورة في غرفتي داخل العلبة السرية الذي كنت أجمع فيها الأشياء المهمة. وما لبثت أن سهوت عنها.

كانت مارامو أغرب كائن التقيته في حياتي. كانت تدخل بيتنا في كل حين، أشبه بإلهة سمراء، بوجهها الطفولي وعينيها المتباعدتين شديدتي الرقة. فإذا تعب بصرها كانت عينها اليسرى تنقلب، فتبدو كأنها ساهمة. وأكثر ما كان يميزها شعرها العجيب المتموج الفاحم، الذي يلفها وينسدل على خاصرتيها، مسبغًا عليها هيأة وحشية.

كانت عادتها أن تمشي حافية القدمين، وليس عليها من الثياب غير باريو تعقده على صدرها. وكانت تدخل البيت من الشاطئ، من غير أن تحدث صوتًا، بتلك اللامبالاة المزدرية عند الأناس الذين لا يملكون شيئًا. وقد حكى لي والدي مرة أنها تنحدر من سلالة تاروا وسلالة تيميهارو وسلالة أميرات رايتيا، والأميرات من غير أرض. فمنحتني اسمًا ماوهيًا، وكانت تدعوني «توبا»؛ لم أعد أعرف لذلك سببًا، ربما بسبب ما كنت أتعرض له من ضربات الشمس أو لأنني كنت أسير بشيء من الاعوجاج، أشبه بسلاطع التراب. كانت تقبلني. وتأتي لزيارة والدي، ليمدها بأدوية لأجل ولدها. لقد تملكتني الدهشة من فكرة أن تكون عاشت كل تلك التجارب. فقد كنا نكاد نكون في سن واحدة، وهي قد خبرت تلك الأمور كلها؛ الحب والأمومة والحياة. لم أر ابنها أبدًا. فقد أنجبته من رجل أمريكي يدعى سومنر، وكان

والدا مارامو من يتولى تربيته، في رايتيا. كان اسمه جوني. ويقال إنه يعمل في الوقت الحاضر بفندق في هواي. لقد تصرم الوقت.

أذكر أنها كانت تدخل البيت، وتأخذ الأدوية لأجل ابنها كأنها ملبسات، من غير أن تنصت إلى ما يقول لها والدي. كنت مغرمًا بعينيها وشعرها ومشيتها الصامتة وقدميها المتصلبتين المتشبثتين بإسمنت الأرض. وكانت تكلمني وترفع الكلفة مع الجميع، فقد كانت تضجر من أعراف الفرنسيين. أتذكر كيف كانت تقتعد الأرض متربعة، وقد وضعت قدمها اليسرى على فخذها. فيقول لها والدي إنها طريقة جلوس الخمير القدامى والمايا القدامى. فبذا تضعها على الفخذ، والأخرى تجعل راحتها مبسوطة إلى السماء لتروي الحكايات.

كانت تحدثني بأمور عجيبة، ربما تكون قرأتها في الكتب، أو تكون تختلقها من عندها، عن أسلافها الذين كانوا أسماكًا بحرية، أو عن الأشجار العظيمة التي تنبت على سفوح البراكين ولها جذور من لمسيات، فهي تهتز لكل ما يقال في العالم.

في الصباحات التي لا أذهب فيها إلى الثانوية، كانت تأخذني إلى الحشاف. فكنا نسير بتؤدة شديدة، كأننا نبحث عن شيء ما. فوق البساط الناعم المتوفز، والموجة تصطفق بنا، وتقذف زبدها في أعيننا. كان والدي قد جاء ببعض الفاكهة. أتذكر جيدًا أن مارامو كانت تغني، وكانت الظهيرة تصطلي بضوئها الساخن، فيخيل إلينا أن تلك الأشياء كلها ستدوم إلى الأبد.

وعندما كانت الشمس تميل إلى الغروب، كانت مارامو تمضي لتستحم في البحيرة المرجانية. فتلبث جالسة في الماء دون حراك. كانت تضحك من سباحة والدي. كانت تعرف كيف تسبح بتمهل، وهي ترفع باطن رجليها شديد النصوع إلى السماء. وبعد ذلك تعود صوب البيت، فتغتسل في النافورة بحياء، من غير أن تفارق الباريو. كانت لها ساقان مفتولتان وظهر غليظ، ونهدان صغيران جدًا وخفيفان. وكان جسمها يلتمع من الزيت. وكانت تهز شعرها الكثيف مرسلة حزمة شرارات.

كان كل شيء بسيطًا مع مرامو. فلم أكن أستغرب لشيء. وأعتقد أنني عرفت على الفور أنها كانت عشيقة والدي. فقد كانت تمضي الليل أحيانًا في بيتنا، فتنام على الأرض في غرفة كبيرة، كانت تقول إنها تشعر فوق السرير بحرارة شديدة. وكان اسم والدي أندري، لكنها تدعوه يوب، لا أعرف لماذا، ربما بسبب قبعته الصغيرة التي يعتمرها إذا خرج إلى الصيد في نهاية الأسبوع. لم تكن تتحدث عنه قط، ولم يكن يعرف عنها شيئًا، أو لا

يكاد يعرف عنها شيئا. لقد كانت طائرا مهاجرا.

وفي يوم ما تغير كل شيء. فما عادت تجيء إلى بيتنا. لبثت أنتظرها يوما بعد يوم. وأتسقع صوت قدميها الحافيتين فوق الإسمنت، فيخيل إلي أنني ألمح خيالها من بعيد يقف فوق حاجز الحشاف، وإن هو إلا السراب.

أدركت أن شيئا ما كان يحدث، لكنني لم أهتد إليه. كان والدي غائبا، متوتزا، يعود إلى البيت في وقت متأخر. وذات يوم كلمني من فرنسا، وأننا سنعود إلى البيت، وأنني سأذهب إلى إحدى المؤسسات في ليون، بعد انتهاء العطلة. لقد وجد عملا هناك، بإحدى المصحات.

ثم كان أن عادت مارامو. كانت العطلة قد انتهت وكنت وحيدا في البيت. دخلت من غير أن تحدث صوتا كعادتها. جلست على السطح لتنظر إلى البحر. كانت تبدو شاردة، وشعرها مشبكا. ربما كانت ثملة. كانت ترتدي فستانا أخضر فاقعا، وقد صبغت شفتيها بالأحمر. فبدا فمها هائلا، كجرح.

كلمتني، كأننا ما افترقنا إلا في الصباح. شدت بقوة على يدي، وضغطت برأسها على كتفي. فشممت رائحة زيت لب النارجيل على جلدها، كأنها رائحة شمس عند مقدم المساء. كانت بعض السحب العجيبة تعلو الأفق، من جانب الموريا.

«توبا، لماذا يشعرني البحر بالرغبة في البكاء؟».

حدثتها في الذهاب للاستحمام. كنت أخشى أن تقول شيئا رهيبا، أننا لن نرى بعضنا بعد ذلك اليوم أبدا. مشت معي مارامو على الرمل. كانت تدخن. وكان الغسق يختي بظلمته على البحر. وكانت هنالك طيور حدادية. فقالت :

«تعال، سنذهب لنتسلى».

كتبث كلمة لوالدي، تركتها فوق المائدة في قاعة الأكل. وانصرفت من غير أن أغلق الأبواب.

في الطريق كانت سيارة تنتظر. كان السائق رجلا صينيا هو السيد وونغ، وعلى الكرسي الخلفي كأس جعة كبيرة وقيثارة صغيرة. كان يعرف مارامو. سمعتها تدعوه طومي. جلست إلى جانبه. إنه رجل شديد السمرة، نحيل، بيدين رقيقتين. كان يلبس سروالا رماديا داكنا وقميصا بمربعات محدد الياقة. لم أفهم من كان، ولا لماذا رغبت مارامو أن أرافقها.

جعل طومي يغمغم بعزف قيثاري، ومن موسيقى الجاز ونغم لبيلي هولیداي. كان الجو ساخنا، والسيارة تنهب بنا الطريق. فأنشأت مارامو تغني لترافق طومي، ثم بدأت تتغنى ببعض الأنغام الماوهي، أنغام الدو. ما عاد لها ذلك الصوت الخشن، بل صار صوتها رقيقا كدخان. خجلت من

نفسي أنني لم أعرف كيف أغني. خيل إلي أن كل المخاوف وكل المواجع ستتبدد بفعل تلك الموسيقى. دست مارامو حمالات فستانها تحت ذراعيها، وكانت تميل بوجهها، وكان شعرها كثيفًا يخفي نصفه. فكان طومي ينظر إليها.

وأقبل الليل، والسيارة لا تزال تنهب بنا الطريق، وتسير وسط التجمعات السكنية. وكانت أضواء النيون تصدر التماعات خلال الظلام. كنا نسير على طريق ساحلية والبحر فراغ أسود كبير، إلى اليسار. وعلى مقربة من منارة فينوس، عند نهاية طريق محفرة، كانت تغص بالسيارات المركونة، كانت هنالك حانة. هو عنبر من قماش تنيره قضبان من النيون. وكانت هنالك جوقة تعزف بصخب موسيقى هادئة. All Kinds of evrytime لدانا. أتذكرها لأنها أغنية أحببتها على الدوام. كان الجو ساخنًا. جلسنا إلى مائدة وطلبنا جعات هينانو، وطلبت مارامو قنينة من النبيذ الأحمر.

كانت الحانة ضاجة صاخبة، فتملكني الدوار. كان هنالك أشخاص غريبون الأطوار، جنود مرتزقة، وفتيات ملطخات بالأصباغ. تلك كانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى مكان من هذا النوع. رقصت مع مارامو. فكنا نصطدم بباقي الراقصين، ونصطدم بالكراسي. كانت مارامو تدربني. كنا نرقص الفالس، الخطوة المضاعفة، رقصة من الأيام الخوالي. وكانت هي تضحك، ويلتف عليها شعرها. وكنت أشم رائحة عرقها، وأحس بالفراغ بين نهديها تحت أصابعي. ظل طومي جالسًا إلى الطاولة، يشرب، ووجهه جامد. كانت عيناه غائرتين من التعب، فيبدو وجهه كوجه ميت. وكذلك كانت مارامو تبدو متعبة. ثم جلست على جانب وقد استندت بذراعيها إلى الطاولة. رأيت أن لها تجعيدة على جانبي فمها، وعلامة على هيأة نجمة بين حاجبيها. خرج السائق من الحانة. كان يحس بحرارة شديدة، ويشعر بالملل.

واتفق أن نشب شجار بالقرب من طاولتنا، بسبب جندي ثمل. فتملك مارامو خوف شديد. توسلت إلى طومي أن يغادرا المكان. جعلت تسير حافية القدمين في الطريق، وفستانها الأخضر يلتمع في الظلام كنار القديس إيلمو.

توقفت عند حافة الحفرة لأتقيأ. أجلستني مارامو في المقعد الخلفي برقة بالغة وحركات كأنها أمومية. فكانت تمرر يديها الناعمتين على وجهي. ومن أصابعها تفوح رائحة التبغ.

«يا توبا المسكين، لا تتحمل! وأما أنا فقد تعودت، إنني أفعل ذلك منذ أن كنت صغيرة».

جعل السيد وونغ يقود بتمهل، عساي أنام. توقفنا عند شاطئ البحر، إلى جانب بيراي. كانت مارامو ترغب في الاستحمام. الريح تهب واهنة، والبحر أسود؛ كان الجو رائقًا. لبث الرجلان جالسين في أعلى الشاطئ. كان طومي يعزف على القيثارة. فأرى شعلة سيجارته كيف تحمز بين الفينة والأخرى. دخلت البحر عاريًا تمامًا، وسبحت من غير أن أرى لي وجهة. لم يعد زمن ولا فضاء. وعندما خرجت من الماء جلست بجانبي، على الرمل.

«هل ستتزوجينه؟»، سألتها.

جعلت تضحك.

«طومي؟».

قالت :

«إنه لطيف، وثري، يملك فندقًا في هاواي. في غد سأصير عجوزًا، يا توبا. سأذهب إلى هناك. وسيكون طاني لن يكون لي سواه.

- لو رحلت، يا مارامو، فربما أموت»، قلتها لأجعلها تضحك. لكنني لم أضحكها.

«قد أذهب إلى فرنسا أيضًا. بوب يرغب أن أذهب وإياه إلى هناك، إلى ليون. وهي مكان بعيد جدًا، وسأكون أنا من سيموت بسبب ذلك».

بقينا على الشاطئ، بجانب الماء. جعلتني مارامو ألمس باطن قدميها المغطاتين بالفطريات.

«هل تظن أن بوسعي أن أسير بحذاء إلى هناك؟

- فالتلبسي حذاء رياضيًا.

- سأذهب حافية القدمين، ينبغي أن تتعودا؟».

كنت أحاول أن أضحك وأمزح، لكنني شعرت فجأة بألم شديد وسط جسمي، بجانب المعدة، إلى اليمين قليلًا. كنت مستندًا إلى مرفقي، وأحس بجسدي يرتجف. انتبهت مارامو إلى الأمر. «هل تشعر بالبرد؟». ضممتني إليها لتمنحني من دفئها. لم أعد أعرف لماذا فكرت في أمي. وددت لو تحدثني عنها، وقد خفتت رغبتي. كذلك كانت مارامو؛ لقد كانت خبيرة. فقالت :

«كانت تسمى طانيا. أتذكرها. فقد كنت في الثالثة عشرة. كانت فائقة الجمال. التقاها في بالي. بذلك كانوا يتحدثون. كنت أراها أحيانًا على القارب صحبة والدك وأنت. كنت ولدًا جميلًا، وأحسيتي كنت مغرمة بك. كان لك شعر بلون شعر طانيا نفسه. وعندما رحلت تملّك بوب حزن شديد. لكن ما عاد بمقدورها أن تتحمل. وظللنا على اعتقادنا لوقت طويل أنها ستعود، فقد كان بوب وحيدًا وإياك في بوناويا. لو ذهب إلى فرنسا، إلى

هناك، إلى تلك المدينة القصية، ليون، فربما تعود طائيا للعيش معكما».

كانت السماء صافية، تعفرها النجوم. وكنت أتذكر القصص التي كانت تقصها علي مارامو فوق سطح البيت فيما تنظر إلى النجوم، وسحابة ماجلان الشهيرة، وجناحي الطائر الكبير، اللذين يسمونهما صليب الجنوب. كان يُسمع للأمواج اصطخاب فوق الجشاف. ثم طلع النهار، فقال السيد وونغ إن علينا أن نرحل. ذهبت مارامو لتكلّم طومي فتشاجرا قليلًا. كنت أسمع نُتفًا من أصوات. لم أفهم ما كانا يقولان. ثم رحل طومي والسيد وونغ. وسمعت صوت السيارة وهي تسير مبتعدة على طريق منارة فينوس. عادت مارامو إلى جانبي. وأحاطت كتفي بذراعيها. تشممت رائحتها، وأحسست بفيض شعرها العجيب.

كانت متحدة مع الفجر. وكان شيئًا عجيبًا ورهيبًا، لأنني أدركت أنها المرة الأخيرة. كانت تتحدث بصوت خفيض أقرب إلى أذني، فكأنما تهمس لي بأغنية.

«إنّ كل شيء إلا قواقع، يا توبا؛ فالعالم قوقعة، والسماء قوقعة أكبر. الأناسي قواقع، وبطون النساء هي القوقعة التي تحضن سائر الأناسي».

تحدثت كذلك عن الزوارق التي يصنعونها من جذوع الأشجار، وعن الأوراق التي هي الأصابع للأشجار، وعن الحجارة التي أنبتت جذورها تحت التراب. كانت تتحدث بتلك الأشياء، كأنما تترك لي معرفتها، لأنني قد لا أراها بعد. وعندما أهلّ نور الصباح أدركت أنني نمت. على الرمل كانت هنالك علامة مارامو. خيل إليّ أنها رحلت مع الآخرين عندما كنت نائمًا، فتملكني حزن عارم. ناديت : «مارا-اموا».

خرجتْ من وراء الأدغال؛ حيث قرفصت لتتبوّل. وأما أنا فقد كنت أرتعد، كنت محمومًا. برزت الشمس من جانب الجبال. وكانت هنالك سحب على هيأة سنادين في الأفق، ناحية رياتيا. كانت مارامو تلتمع في فستانها الأخضر. وكان وجهها الأسمر يبدو صقيلًا، ونظرتها غامضة. مشطت، متثاقلة، شعرها إلى الخلف، وجعلته في كُعيكة ثبتتها بدبوس كبير، كفعل الفجر. وبينما كنت أسير نحو الطريق لمحت سيارة السيد وونغ تقف منتظرة. في الخلف كان طومي يدخن سيجارة. وبدا كل شيء، تحت ضوء الصباح، باردًا وشاحبًا.

«سأركب المقدية إلى رياتيا». قالت مارامو بهدوء. تلك كانت وجهتها. ولم يكن بمقدور أحد أن يحوّلها عنها.

ركبنا السيارة إلى الميناء. لم ينبس طومي بشيء، ولا عاد يعزف على القيثارة. كان يلوح عليه، هو الآخر، أنه في غاية التعب، ربما كان مكتئبًا.

وعندما جئنا إلى الميناء ذهبت مارامو لتجلب أغراضها من فندق صيني، بقرب رصيف المعدية. خرجتُ من السيارة وانتظرتها تحت ظلال الأشجار. وعندما عادت كانت قد غيرت ثيابها. ارتدت سروالًا وقميضا رجاليين، وحذاء بكعب، فكان يؤلمها كثيرًا في قدميها. قبلتني.

«إلى اللقاء. فربما نتلاقى، ذات يوم».

قلت : «إلى اللقاء». كنت أشعر باختناق وألم في صدري. بقي السيد وونغ داخل السيارة، ولم يكن ينظر. المؤكد أن ذلك كله لم يكن يعنيه من قريب أو بعيد. أناس يأتون، وآخرون يذهبون. وأما أنا فقد كنت أظن أنني لن أرى مارامو بعد أبدًا، وأنني لن أسمع بعد صوتها الواضح عندما تفتي الدو. لن أتنسم بعد رائحة البخور على جلدها. ذلك هو السبب الذي جعل ضياء ذلك الصباح فاقد الوهج.

ترجل طومي من السيارة. نظر إليّ، ولم يفه بشيء. كان يمسك بيده حقيبة سوداء. ثم سار ومارامو، مبتعدين صوب المعدية. وأنا عدت إلى السيارة، فأقلّني السيد وونغ إلى بوناويا. لم يرض بأن أؤدي له أجرَ الرحلة. أظن أن طومي هو الذي طلب منه ذلك.

عندما وصلتُ إلى بيتنا لم يكلمني والدي بشيء، ولم يسألني شيئًا. لم نتحادث أبدًا عن تلك الليلة التي أمضيتها خارج البيت. ولا فاه من بعد أبدًا باسم مارامو.

بعد ذلك عدنا إلى فرنسا، وإلى تلك المدينة ليون؛ حيث يطول الشتاء فوق زمن الفصل، وحيث لا يُسمع للبحر صوت أبدًا، وحيث لا تهب ريح الجنوب. عادت طانيا للعيش مع والدي. أظن أن ذلك ما كانت تريد مارامو. لم أعد أعرف الشيء الكثير عن مارامو. سمعت من أحدهم أنها تزوجت بطومي، وأنها طافت حول العالم. تصرم الوقت. نقول أشياء، ونألم، فنحسب أن سيكون فيها هلاكنا، وسنين بعد لا تعود تلك الأشياء كلها سوى ذكرى.

كنز

كان حتى كان، في زمن لم يكن الناس قد شرعوا يذبحون الخيول التي تقعدها الشيخوخة المتقدمة عن الخدمة، بل كانوا يتركونها ترحل إلى الجبال، لتلقي هناك الموت مخمورة بأنفاس الحرية. بذلك كان يتحدث، يتذكر سماوين صوته إذ يحكي عن الزمن الغابر، وقت أن كانت الأرواح لا تزال تُساكن الأناسي في البتراء، بجوار عيون الماء، وتقدر أن توجه الرياح والعواصف وتحرس سر القبور.

كانت الأسر الخمس المكونة لشعب البدول تأتلف على ميثاق مع الأرواح، فأحلّتها مدينتها، في قلب الوادي. الأطفال يقتادون القطعان لترعى في سفوح الجبال، والرجال يحصدون القمح الرخص ينمو في السهل، أمام «البيضاء» من غير أن تتعهده يد بشر. عيون الماء تنبجس من تلقائها فتأتيها النساء ليغترفن منها ماء صافيًا زلالًا لا ينضب. العجائز يوقدن النار في الأضرحة المتحفرة في الجرف، فيمتلئ الوادي مساء بدخان القوم.

كان والد سماوين يلهج كذلك بالحظر: فلم يكن لأحد في ذلك الزمان أن يطمع في معرفة سر الماضي. ولم يكن يجوز لأحد أن يسمح للأجانب بالدنو من الكنز، لأن الأرواح شديدة تمنّع وغضب. ولو شاء سوء الحظ لأحد أن يتسلل إلى المدينة، ويسعى في الاقتراب من ممتلكات الأرواح، لجاء انتقامها شديدًا، ولطردت شعب البدول، إلى الأبد، عن البتراء.

بذلك كان يتحدث والد سماوين. وقد سار كل شيء كما قال. وها إن سماوين الآن وحيد في العالم، بعد أن رحل والده إلى الجانب الآخر من البحر، لكي لا يعود. وطُردت الأسر البدول الخمس الأخرى بعيدًا عن مدينة الأرواح فأقامت لها الحكومة قرية من بيوت إسمنتية، متشابهة كلها. فصار الأطفال يتسكعون بين الخرائب، ويتقزّون بأيديهم الرسوم التي خلّفها الجان على الحجارة وعلى السقوف ويرون إلى الرقصة الخفية تثير سحائب من غبار في أفنية قصور الأموات.

فتح سماوين الحقيبة السوداء. تلك الحقيبة التي حملها والده معه من الجانب الآخر من البحر. حقيبة جميلة من فرو متين ذات قفل بأربع عجلات مرقمة لاسبيل إلى فتحها إلا بسر. سكان البيت الآخرون، خاله، وأولاد خاله، يجهلون بالسر. وليس لهم علم كذلك بما تحوي الحقيبة. تراها تحوي حليًا وذهبًا وأوراقًا بنكية؟ ربما. فكذلك يعتقدون. وسماوين فرِح أن كان ذلك ظنهم. وعندما تراودته الرغبة في فتح الحقيبة يخرج من بيت خاله، ويسير في السهل، أبعد ما في الإمكان. يظل يمشي إلى أن يبلغ

الرغم الذي يرى منه سهل الأرواح المكلّس أوضح ما يكون. ذلك هو المكان الذي كان يأتيه ووالده قبل وقت طويل، ليتسمع كلام الأرواح. إنه يتذكر رنين صوته، وحفيف يده على كتفه. وها إن كل شيء قد اختفى الآن؛ الكلمات والهبوب، قوة يد والده ولون عينيه. وما تبقى غير المجال المكلّس، وتلك الحقيبة التي وصلت ذات يوم، من الجانب الآخر من البحر. لأجل ذلك أصبح سماوين معتادًا على المجيء إلى هذا المكان طلبًا للاستذكار.

أبناء خاله مكبون بوجوههم؛ يترضدون من أعلى حائط الحجر الذي يحف بقرية البدول. إنهم لا يعرفون شيئًا. لا يعرفون شيئًا عن الكنز. فكانوا من غيظهم يقذفون بالحجارة ويصفرون كالنسور. لكنهم لا يجرؤون على الاقتراب من سماوين. فهم يعرفون أنه مثل سر الجان؛ من يهتك ستره يُحبَس في دائرة لامرئية تصيبه بالجنون، حتى ليصير يمشي بطأ ظله.

أدار سماوين العجلات الصغيرة في القفل، وفتح متنبّذًا غطاء الحقيبة. إنه لا يفتحها دائمًا إلا متمهلًا، تحسبًا للريح الماكرة أن تتسلل إلى الحقيبة، فتطير بمحتواها.

كان في قعر الحقيبة أوراق قد حزمت بشرائط، وصور ورسائل. ذلك هو الكنز؛ ليس غير أوراق وصور. لكن سماوين يشعر بالسعادة كلما رفع الغطاء، فتلتمع عيناه ويشرق محياه فيخيل إلى الآخرين أنه يقلّب في الذهب والفضة، أو يقلب في حزم الدولار.

لم يسبق لسماوين أن فتح الحقيبة وهو في بيت خاله. فهو يضعها أرضًا، بجانب السرير، ويجعل من تحتها وسادة، كأنما لتكون لها مقعدًا. وذات يوم باغت عليًا وهو يحاول فتحها. كان يدير العجلات، فيركب رقمًا بعد آخر. لم يسمع بقدوم سماوين. فوثب عليه هذا الأخير، وشد بخناقه، وجعلا يتعاركان. كان عليٌ الأقوى، فطرح سماوين أرضًا، وهمّ أن يخنقه. فقد جعل يشد على خناقه ويضغط على عنقه، حتى أوشك يزهق روحه. وفي تلك اللحظة دخل خاله الحجرة. فتناول عصا تُعمل في الجمال وهوى بها على ولده عليٍ، وعلى سماوين أيضًا، وإن اقتصر بها على ساقيه. لقد فقد صوابه، فسبهما، ونعتهما بالشحاذين اللذين لا يصلحان لشيء. لم يشع عليٌ بعد ذلك أبدًا، في فتح الحقيبة السوداء. ولو كان استأذن من سماوين فلربما أطلعه على ذلك الكنز من الرسائل والصور المصفرّة ولاسيما تلك التي يبدو فيها وهو بعد رضيع بين ذراعي تلك التي كان يدعوها أمه؛ تلك الغريبة الشقراء القادمة من الجانب الآخر من البحر، والتي رحلت وذهبت

بأبيه.

إنه يعلم جيدًا أن الأجنبية ليست أمه، فأمه الحقيقية توفيت وهي تضعه. لكن هي التي اختارته، منذ أن صار يعرف بما تحوي الحقيبة.

ينظر سماوين إلى الصور تحركها الريح. ويثابر على قراءة الكلمات الأنجليزية المكتوبة على ظهر الصورة. «Love, Sara». لا يعرف بتلك الكلمات أحد سواه. إنها ثقيلة؛ فهي تثقل على جفنيه، وتزيد من خفقان قلبه. وتحت قدميه الوادي المكلس وحيدًا تبدد عنه الدخان، وخرست فيه حتى الطيور. ربما لأجل هذا رحل والده؛ فالسر يكون أحيانًا أثقل من أن يُتحمل.

إلجي، شتاء ١٩٩٠

ها إنني أنفذ، أنا، جون بوركهارت، مرة أخرى، إلى لغز الزمن. وبعد تردد كثير أدنو من ذلك السور، وأدخل ممر السيك (كذلك كان يسميه الرحالة في مذكراته). كانت الجبال تبدو خلل الضوء الشاحب للفجر الأول، أغرب مما هي الآن، فقد كانت توحي بشيء شرير وخارق. وقد كنت امتنعت من مرافقة المرشدين، أبغي أن أدخل لوحدي مدينة الأموات. كان كل ما حولها قفرًا خاليًا. القرية، ونواحي الفنادق، وحتى المغارة؛ حيث كان يجري، في الماضي كراء الجياد. لقد انسحبت الحياة من هذا الوادي، وتحولت عنه الأنظار إلى أماكن أخرى. وها إنني قد عدت إلى ذلك الشهر، غشت ١٨١٢، حين كان الرحالة الذي أحمل اسمه يسلك هذه السبيل، وينزل صوب السور المحترق حيث ينفتح السيك.

إنني أدخل أنا أيضًا عالم الأموات. الصخور الخارجة للتو من الظل كانت في لون شاحب كلون الموت، وبعضها كأنه جماجم مفغورة المحاجر، ومخلّعة الأسنان.

تجاسرت على دخول أحد القبور. الأرض مكسوة ترابًا شديد الدقة، يكاد يتأبى عن اللمس. أعرف أن الرحالة قد دخل ههنا دون شك، من قبل أن ينضم إلى الموكب. المكان يصدع برائحة بول حادة، وعند المدخل رأيت براز ماعز. عندما دخل الرحالة هذا القبر لزم المرشد أن يلبث منتظرًا في الخارج، فأنزل عنه عنزته العجوز في التراب وجلس على حجر. ولربما خيل إليه (كما كان يريد الرحالة الأجنبي) أنه دخل القبر ليقضي حاجته الطبيعية. ثم جاءا إلى الجسر الذي شيده الجن عند مدخل الشعب على ارتفاع مدوّخ لكي لا يكون في مقدور أحد أن يقترب منه. وقد بات المرشد يراقب الرحالة، وبات يدرك أن هذا الرجل غريب الأطوار المتلفع معطفه، والمعتمر عمامة غريبة الشكل، إنما كان مراده من المجيء إلى هذا المكان

أن يسرق الكنز السري للأموات.

كان يسير وهو يجذب حبل العنزة، لكنها تمتنع من المشي كأنما وعت ما ينتظرها في آخر الطريق. ولاشك أن قلبها كان يخفق بسرعة شديدة، من تحت شعر عنقها المصفر، المبقع ترابًا، وأن نفسها كان يباعد بين ضلوعها النحيلة.

الآن أسير، أنا أيضًا، صوب السر. في الغيش أرى خيال المرشد النحيل. فقد خلع نعليه، ليغذ في السير، وأخفاهما تحت حجر، وحمل العنزة العجوز فوق كتفيه. الرحالة يحمل قربة ماء ملأها من العين العجيبة في وادي موسى.

الشمس ترتفع وراءي، فتنير الأفق وأعالى الجروف. والغبار يتصاعد خلال الموكب، ويرتفع، ثم يتساقط رمادًا.

أفكر في غبار الصحراء، على طريق بغداد. صخب الحرب يغشى العالم، وههنا ما عاد غير الصمت. انسحب غضب الرجال عن الجبال والأودية المحيطة، كدم حيوان يذبح. لقد سار الرحالة الأجنبي ومرشده ههنا قبل ما يزيد عن مائة عام، ومع ذلك أحسبني أرى آثارهما وأشم رائحتهما.

أسير في سرير السيل، الذي لفظت مياهه الهوجاء حجارة وأغصانًا ميتة، بتوالي العواصف. يتصاعد الغبار من تحت قدمي ويكتنفني بسحابة رمادية ويصيبني بالاختناق. عقدت منديلي حول وجهي، ومسدت جفني. الغبار ينفذ إلى ثيابي وحذائي. لا تزال في قرارة الوادي قطع من ظلام عالقة بالحيطان. الخنق شديد الضيق، حتى لأحس لصق كتفي الجرف بارزًا، بلون الأمعاء. هل يكون ذلك ما شعر به الرحالة، عندما كان يسير في جوف هذا الخَنق، وهو يخفي وجهه بطرف عمامته؟ كان المرشد يمشي قدامه مسرعًا، وهو يتعثر بالحجارة فتتقوض، وقد حمل على كتفيه العنزة موثقة القوائم. ولاشك أن قد خامره حينها، مثلي، شعور أنه ينزل نحو مركز الأرض، نحو سر أصلها، جوفها الأحمر؛ حيث يسود الموت.

لاشك أن ذلك قد اعتصر قلبه، مثلما يعتصر قلبي في هذه اللحظة، والغبار كان يخنقه. كان الجو وقتها حارًا جدًا فكأنني أتذكره، ومن فوقهما كانت الجبال حارة حامية. وفي الصحراء المترامية، على مقربة من البصرة، كانت سماء الفجر قد بدأت تستعر. وأنا أسير أضرب في الأرض نفسها، وتحت السماء نفسها في جوف هذا الصدع، أرى الضوء نفسه ينير خلال الغبار. والسيك يضيق في بعض جوانبه، حتى لكأن حيطان الجرف تتلامس بقممها، فتحجب السماء.

كان المرشد يسير من غير توقف، يتقدم الرحالة. فكأنني أسمع بوضوح

حفيف الخطى على الحجارة، وأنفاس العنزة الصاحلة. وبقدر ما يزداد ضوء النهار أصير أستبين على الحيطان الرسوم والتدوب والشقوق التي تصعد حتى الأعلى، والعلامات الممحوة وقد ارتدت إلى الزمن الأحفوري. انقبض قلبي، وبت ألاقي صعوبة في التنفس لأنني دخلت عالمًا آخر، عالم ترك عليه الجن آثارهم. ما عاد الوقت سوى خفق، وأنا قريب جدًا من الرحالة أسير في ظله.

توقفت أمام علامة إلى اليسار، يقوم بمستوى الطمي الذي كونه السيل معبدٌ صغير منحفر في الجرف. لاشك أن الماء قد كون في هذا الموضع زويعة، فلم يجب غير سافلة المعبد. في داخل المعبد انبثقت هيأة مدورة، لا تزال بعد حائرة ملتبسة، أشبه ببيضة من حجر. وعلى الحائط المكسر للجرف الأحمر، من فوق الغبار والزوابع التي ضغفت خلال الصدوع والتنوءات، في ذلك الخضم من الغبار والعنف، كانت الدائرة غريبة وناعمة، وكنت أنظر إليها ولا آتي حراكًا. لاشك أنها هي ما رأى الرحالة هو الآخر عندما ولج السيك أول مرة. ولاشك أن المرشد وضع العنزة أرضًا وتراجع إلى الوراء، وجذب الرحالة من كم كسوته وهو يتلفظ بكلمات غاضبة. كان حجرًا سحريًا، فهو ينظر إليه كأنه مرآة. ثم عادا لمواصلة طريقهما في جوف الخنق فيطويهما ما تثير خطاهما من زوابع الغبار.

وأنا أمضي صوب السر، وأدخل سحابة الغبار التي دخلاها. قلبي شديد خفقان، وحلقي ضد، فأنا أعرف ما سأرى. أنتظر هذه اللحظة؛ إنها أمامي، لا تزال خفية، غير أنها تحرق بصري. وعند كل انعطافة للجرف، وعند كل شق، أتوقع أن أراها. يخيل إلي أنني إنما أعود القهقرى في السبيل التي قطعتها من قبل، منذ وقت طويل. أسير في حلم. أو في صفحات ذلك الكتاب الذي كنت قرأته في مكتبة جدي، في زوريخ؛ ذلك الكتاب المجلد الأحمر الذي يحكي عن تلك الأماكن العجيبة، دمشق، والكرك وشاوباك، ومعن، والعقبة. الصفحات التي كانت تتحدث عن إلجي، وعن وادي موسى، وعن السيك، وعن ذلك القوم غريب الاسم؛ اللياثنة. إنه تاريخي، المكتوب في قرارة نفسي، فأنا أتعرف عليه في كل خطوة أخطوها. اشتد اضطرابي، بحيث لم أجد بدًا من أن أتوقف، وأقتعد حجرًا لأسترد أنفاسي. الشمس نشرت أشعتها الآن فوق السيك وبدأت السماء تستعر. وفي الخنق لا تزال بعض قطع من عتمة، ويسفع للماء انثيالٌ في باطن الأرض. وإن هي إلا هنيهة وسيملأ الأسماع ركض طلائع الخيل ونداءات المرشدين المرافقين للسياح. فإن هي إلا هذه الهنيهة المتبقية تفصل النهار عن الليل، وقد أخذت في التلاشي. وإن هي إلا برهة، وتغشى الطائرات سماء العراق،

فتنشر عليها بساطًا من قنابل.

يخيل إلي أنني بلغت السن، والآن سيصير كل شيء بخلاف ما كان. سأجتمع بزمن الرحالة الأول، وقت أن كان العالم لا يزال بريئًا، فكان يدور متنزهًا من حول قبة جبل هارون.

عدوت لأهرب من القلق الذي تبعته تلك اللحظة. كنت أخمن، أمامي، المرشد والرحالة مختبئين في منعرجات السيك وأسمع صوت خطاهما، وأتسمع أنفاسهما، وشكاة العنزة المرتجفة.

فجأة رأيته. الكنز. الخفة، والنعومة. الطرفة. فكرة وأفضل من فكرة؛ حلم. بلون السحاب. كذلك بدا له، في صبيحة ذلك اليوم، ٢٢ من شهر غشت ١٨١٢، في قرابة الثامنة، عند مصب السيك، بعد متاعب ومماطلات كثيرة شاسعًا ومؤتلقًا كما الفجر بين جوانب الجبل السوداء. فجعل، مثلي، يترنح في الساحة تكنفه زوابع الريح والغبار فوضع قربة الماء أرضًا، وجلس عساه يتمكن من الرؤية بشكل أفضل. وكان المرشد وضع العنزة المقيدة أرضًا وجعل، هو الآخر، ينظر إلى مسكن الجن. ثم التفت إلى بوركهارت وسأله : «ماذا تفعل؟». فأجابه الرحالة، وهو مقوس إلى الأمام، ويشد على دفتر مذكراته تحت كسوته : «لم أعد أقوى على المسير. إنني متعب، فلنمكث ههنا لحظة». لكن نظرته المؤتلقة كانت تنطق بعكس ما تفوه به شفتاه. فما كان يشعر بتعب. كان قلبه يخفق بشدة، وعيناه تتحرقان، لأنه اكتشف الكنز. جعل يحدث نفسه أنه حلم حلم لم يكتمل، لا يزال يرتعد من اهتزاز الليل الذي أنشأه على حافة النسيان. منبثق كوجه من حجر. كان المرشد يقول له : «هيا! ولنسرع. فقبر هارون لا يزال بعيدًا والجن يملأ هذا المكان». استطال وجهه الأسود، وصارت نظرته حادة كنصل. كان يقف وسط الفناء، يدير ظهره إلى القبر، وقد هزت الريح معطفه الرث البالي. وعند قدميه كانت العنزة العجوز تزحف في التراب وترفس بقوائمها الموثقة، كالبهيمة التي تُذبح.

صدري يهتز بدقات قلبي. عزلة الحرب شيء قاتل. أسمع ضجات الأصوات، والصرخات الحادة يطلقها الأطفال، وضربات المطارق من أيدي العمال وهم ينحتون الحجر، وحتى لأتنشق رائحة الغبار من الحجر المتشظي. أشتم عرق الرجال. إنني تحت السماء نفسها، أستنشق الريح نفسها. السحب تنساب سرمديًا. هنالك، على مبعدة قليلة على طريق الحجزة، تنساب السحب نفسها، وظلها يسافر في يسر ومرونة حتى ملتقى النهرين حيث كان منشأ العالم.

أتنشق الهواء نفسه، والغبار نفسه. أسمع صيحات الطيور نفسها، ونعيب

الغربان، وصفير النسور. على الحجارة، لصق الأرض، ذباب مسطح، والأعشاب النحيلة تهتز في الريح. إنني في وادي الذاكرة، في الشق حيث لبد الزمن كظل. أسير على جسدي.

دخلت القبر المشرع على الجرف، على الجانب الآخر من الوادي، قبالة الكنز. تسلقت الصخور، وجلست عند مدخل المغارة. إنها قاعة فسيحة، محفورة في الجرف. حيطانها حمراء وعليها بقع من سخام. وشق كبير يبتدئ من قمة الجرف، ويخترق القبر وينزل إلى مركز الأرض. عندما دخلت رأيته، فارتعدت فكأنما هو ذلك الشق الذي سيقوض العالم حقًا. أفكر في غور وفي وادي مجيب الكبير، وفي ذلك الصدع الجهمي. فيكون بوركهارت، الرحالة، قد جاز هذه الأسرار واجتاز هذه المغارات قبل أن يجلس ههنا، في الساحة، أمام الكنز. رأى بحر القار تعلق به الضبابة. لقد دخل ههنا، مثلما يدخل قبره، من غير أن يعرف حقًا أنه قد بلغ الهدف من رحلته. فأسير متقفيًا آثاره، الآن أقرأ قصتي الشخصية في النقوش التي على الجرف. أتسلل إلى الحفرة نفسها، وألج المدخل نفسه.

لاشك أن المرشد قد حانت منه وقتها نظرة فيها من الغضب والخوف ناحية الجبل، فيما كان يحمل العنزة فوق كتفيه. «لا يمكننا أن نتأخر ههنا، فلسوف يطلع علينا قطاع الطرق». أسمع شكاة العنزة، وأشم رائحة البول الذي يلوث فروتها. أحمل قربة الماء فوق كتفي، وأسير في قرارة الوادي، صوب مدينة الأرواح.

الشمس الآن في كبد السماء الخالية من الغيوم. والسياح بدأوا يضلون. فقد وصل عشرون منهم دفعة واحدة، فكأن حافلة انبثقت من عدم، بمصابيحها الموقدة، وأبوابها الممتلئة بالهواء المضغوط، الموصدة الأقفال، فلفظتهم أمام المسرح عند مدخل المدينة.

جعلوا يسيرون بطول السبيل الرومانية، وعلى رؤوسهم قبعات من شتى الألوان. معظمهم إيطاليون، وبينهم بعض الإسبان أيضًا. لا يهتمون للحرب في العراق. يرفعون أصواتهم بالكلام ويتلاقطون الصور.

وبطول السبيل جلس باعة التوافه، وباعة الرمل والبدويات المتشحات سوادًا، المقرفصات أمام معروضاتهن من قطع الزجاج المصبوغ، وشقاف يزعمن لها أنها نبطية ومسامير بالية صدئة. وهنالك أيضًا باعة الصودا، وباعة القبعات، وباعة العلك. أشعة الشمس تلتمع على الخرائب وتلتمع على شعر الأطفال. ناقة عجوز معتوهة تبرك مدمدمة. وعلى التلال، في صعيد المدينة أرى خيالات التوق التي تتقافز بقوائمها المشكولة.

عند طرف المدينة، جلس الرحالة أمام حيطان قلعة بنت الفرعون. إنه

يحاول أن يسجل بعض الملاحظات ويدون بعض الرسيمات، وهو يخفي يديه تحت كسوته، فيصيح المرشد : «إنني أرى جيدًا ما أنت. ما أنت إلا كافر، وهدفك الحقيقي أن تدخل مدينة أسلافك، لكن اعلم أننا لن نسمح لك بأن تحمل ذرة واحدة من الكنوز المطمورة في هذا المكان لأنها توجد في أرضنا، فهي ملك لنا». وشد على العنزة وجعل يتأهب لمواصلة طريقه صوب جبل هارون.

مجموعة السياح تدخل الأضرحة، وترتقي درجات المعابد. وقد التحقت بهم مجموعة من التلاميذ يقودهم أستاذ متسلح بعصا طويلة. إنهم قدموا من شاوباك. وبعضهم يرتدي تي شورت موسومة بأسماء جامعات من أمريكا الشمالية.

تسلقت التلة المطلة على المدينة، ومشيت في سبيل لا تكاد تبين، إلى أن جئت قطيع الجمال. فرأيت عمود الحجر المنغرس في الأرض، الذي يدعوه بوركهارت باسم غريب هو Hasta virilis pharaonis، ويسميه العرب ببساطة «زب فرعون». ههنا يسود الصمت، إلا من اندعاك خفيف للريح بالحجارة. الجرف خلفي تتخلله فتحات كثيرة، مداخل للأضرحة ونخاريب بليت وتآكلت بفرط التعرية. محاجر منفغرة. وفي الأسفل، ناحية الجنوب الغربي، أرى وادي الثغرة، صدعًا عميقًا، من غير ماء، يشويه ضوء الشمس. ههنا سار الرحالة، رفقة المرشد، إلى أن بلغا جبل هارون. أتقرى غور الوادي، فكأنني سأستبين خيالي الرجلين وأسمع كذلك صوت العنزة التي يحملانها لتكون قربانًا. عند طرف الوادي يصير جبل هارون يشرف على الجبال الأخرى. والقبة البيضاء تلتمع بضوء الشمس.

أعلم الآن أنني لن أمضي حتى القبر. كل مرادي كان أن أجد لي مكانًا، عند سفح الجبل، وأتشقم العلامة؛ حيث سال دم العنزة العجوز. وأن أحفن شيئًا من التراب، أمسح به وجهي. وأمزج التراب الأحمر بريقي، وأمسح به أجفاني. فلأجل ذلك كان مجيئي. لكي أرى. ولأضيع الزمن، وأرى بعيني ذلك الإنسان المجهول الذي أحمل اسمه. لكن فات الأوان، من دون شك. في ١٧ يناير، عندما امتلأت سماء الليل بفرقعات المقنبلات، صار كل شيء ساكنًا في مدينة الأرواح، وعاد الرحالة ومرشده كما كانا شبحين متفلّتين. وقد خيل إلي، لبرهة، في الفجر، أنني أسمع صوت خطاهما وأصواتهما، والنداء الشاكي تجأر به العنزة العجوز يحملها المرشد على كتفيه. ثم اختفى كل شيء، وعاد كما كان.

عاودت النزول إلى المدينة. كانت الشمس قد بدأت تنحدر إلى المغيب. وظهرت سحب فوق الجبال، ناحية الغرب، وامحى قبر هارون. وحين

وصلت إلى سفح الجرف، إذا فتاة تنتصب أمامي. كانت حافية القدمين وترتدي الجلباب الأسود الطويل الذي تلبسه البدويات وسروالاً من قماش أزرق. وجهها عليه نقاب ضارب إلى البياض. فتعرفت فيها على إحدى الفتيات اللائي كن يمشين في السبيل الرومانية، باتجاه المسرح. لها وجه غريب، جامد وعينان بلون العنبر، شديدتا بريق. فعرفت في الحال أنها خرساء.

لبثت متسمرًا في مكاني، فتقدمت نحوي، ومدت إلي بيمناها مبسوطة. في راحة كفها حجر شديد الحمرة، في لون الجمر. تتوقف قدامي، وتنظر إلي، ثم تضع الحجر في يدي. وجهها متوتر، لكن لا يبدو عليها خوف. إنها في جمال محير، متوحش. شعرها تحت خمارها مشتبك ووجهها متسخ من الغبار، وعلى يديها ندوب.

أقتسم وإياها المؤونة التي حملتها معي من الفندق وكانت خبزًا وبرتقالة. أقشر البرتقالة كما يفعلون في إفريقيا فما أزلت غير قشرة رقيقة نضرة، وشطرتها نصفين، وأعطيتها نصفها لتمصه كأنه قدح. الفتاة تقلد حركاتي، فتشرب العصير، وتلفظ البزور وقطع اللب. شفتاها مشققتان جراء الشمس، وتنقصها بعض الأسنان.

عندما فرغت من الأكل لبثت مقرفصة إلى حائط الحجارة في ظل صخرة. واستمرت تنظر إلي، وترسم في التراب بأطراف أصابعها. فأخرجت من جيبي المفكرة الصغيرة التي ظللت أرسم فيها طوال الطريق كلها، في السبيك، الصخوز والشقوق وخديدات الحجر في القبور. أومأت إلي على المفكرة، وجاءت بإشارة أن اكتب. جعلت تنظر إلى الأحرف، ثم أخذت بدورها ترسم بالقلم بعض العلامات في كتابة غريبة تخصها وحدها من دوائر وقضبان. فعلت ثم مدت إلي بالمفكرة. وجهها ينم عن فرح طفولي. عيناها تبدوان كالشفافتين على صفحة وجهها القاتم. ونظرتها تنفذ إلي، فتملؤني صمتًا.

وددت لو أعرف اسمها. أقوه بالأسماء اعتباطًا، فيما هي تقرأ حركات شفتي. أقول عائشة، مريم، سميرة، عالية هناء. فتجعل تتمايل بجذعها، وظهرها إلى الضوء. الريح تنفخ جلبابها الأسود وتُطير بنقابها. عيناها الصفراوان تلتمعان على صفحة وجهها القاتم ببريق خارق. وأسفل، في الوادي تتحرك خيالات السياح الإيطاليين ببطء شديد. لا تكاد تراها الفتاة. إنها ههنا منذ الأزل فتية، ونحيفة، ومتوحشة فهي التي تسود على مدينة الأرواح. وعندما دخل الرحالة والمرشد الليائني، حاملين العنزة ليجعلاها أضحية، نظرت إليهما من فوق أنف جبلها. وربما تكون نزلت إلى سرير

وادي الثغرة، في اتجاه قبر الأفاعي، وأنها مشت أمامهما وعلى راحتها الحجر نفسه بلون الجمر.

وعلى حين غرة، اختفت متلما ظهرت. رأيت لوهلة خيالها الأسود يقفز بطول الجرف، باتجاه وادي السياغ. إنها تندس بين الصدوع، وتختلط بالظلال، فلا يبقى إلا الجبل وصوت الريح والتنوء الجبلي العاري؛ حيث تحجل البهائم المقيدة.

عدت إلى الأسفل؛ إلى المدينة، رفقة السياح. جندي بدوي في زي الفيلق العربي يقف بجوار ناقة مضطجعة. وكان هنالك كذلك فصيل مقيد. الجندي يتخذ وضعة ليصوره الشابان الكنديان اللابسان التي شورت والحاملان حقيبتين على ظهريهما. وبعد أن رحلا، قدمت سيجارة إلى الجندي العجوز، ودخنا معًا، من غير أن نفوه بكلمة. وحين كنت أهم بالانصراف قال لي بالأنجليزية إن الناقة تدعى إسيانيا. وأما الفصيل فلم يحصل بعدُ على اسم. البهيمتان تعودان إلى أسرته. وهما موسومتان بوسم من ثلاثة فصوص.

أخذ السياح في التفرق شيئًا فشيئًا. وجمع التجار مناضدهم وحملوها فوق ظهور البغال. وصارت الناقة وفصيلها يبتعدان يُسمع لخطاهما المتناقلة حفيف رقيق. ثم اشتد هبوب الريح في الوادي، واستحالت مدينة الأرواح بنفسجية داكنة. وأظلمت حتى الحجارة التي أمسك بها في يدي.

لم أرجع إلى وادي موسى. جعلت أسير في سرير وادي السياغ، صوب النبع. في نفسي خواء، وتحرُّق. أريد أن أرى تلك الجروف، وتلك الصخور الريحية، وعيون القبور المفتوحة على الليل الوشيك. كذلك لاحت للرحالة اللازمني. وفيما كان يمشي في الغروب، بطول الوادي إلى أن يبلغ سفح جبل هارون، كان يشعر بالتحرق نفسه ويشعر بالخواء نفسه. كان يغذ في خطاه من خلف المرشد يريد مكان القربان، وهو ينتظر إلى أن ينبجس الدم من حنجرة العنزة اللاهثة، ويسيل على الأرض المتربة فيسبغ عليها تلك المسحة الجمرية. أنا أيضًا إنما يقودني الدم البقعةُ الداكنة في راحة كفي، ذلك الحجر الذي أعطتني إياه الفتاة الخرساء أشبه بحجر كريم. إنه يحرق يدي. إنه طلسمي الوحيد من حتمية الحرب.

أتلظى ظمأً. فمنذ أن اقتسمت تلك البرتقالة مع الخرساء لم أشرب شيئًا، فجف ريقي في حلقي ودميت شفتاي. حيطان الجرف العالية حارقة من كل جانب كأنها أفران، فهي ترد الضوء الذي تختزنه أثناء النهار. الحجر الأحمر في يدي واخز.

أسير، لا أعرف لي سببًا، أو أعرف لي وجهة. عليّ أن أجد النبع؛ فهو الشيء الوحيد الذي يهفني؛ الشيء الوحيد الذي يسكنني. كان وادي السياغ إذا تجاوز أنف حصن الحيس المتشابك ينعطف انعطافة كبيرة؛ وإلى هذا المكان جاء الحجّارون في الماضي لاستخراج الألواح الصخرية. الجبل منحوت، كأنما بضربات فأس قوية. وعند سفح المقالع حقول زراعية، ومساحات شاسعة من القمح. الجدول يتعرج خُبيطات رقيقة خلال شواطئ الحصى والرمل. لاوجود لأحد. ما زلت أسمع صياح الغربان في مكان ما، يتصادى في قرارة الوادي، أو أسمع في الأعالي نعيب الجوارح. أسير أبحث عن آثار، الآثار الخفيفة لقدميها العاريتين فوق الرمل. لاشك أن الصبية مرت من هذا المكان ربما منذ ساعة. صعدت مع الجدول إلى النبع. فهنالك تسكن. أحس بنظرتها تقع عليّ، نظرتها الغريبة السائلة، نظرتها الأسيلة التي لا تقوى أي كلمة، ولا أي غضبة، على أن تعكر صفوها. أسير من غير أن أستعيد أنفاسي، وأنا أشد في يمناي على الحجر الأحمر.

وقبيل الليل، أهتدي بعد لأي إلى النبع. إنه منطمر في قرارة الوادي خلال الأدغال والأجمات. أنزل إلى قرارة الوادي، وأنا أتشبث بالجذور، وأزحف خلال مناسغ الدفلى. وبين الفينة والأخرى أتجمد في مكاني، وأحبس أنفاسي، عساي أسمع بشكل أفضل. في مكان ما، قريب جدًا، أتسقع ضجيج الماء، الضجيج الأرقّ، كمثل صوت أو كمثل كلمة تنبس بها الفتاة الخرساء. أتقدم زاحفًا في الطين. الأغصان والفروع تخدش عينيّ، فأغصان الدفلى سياط مُرة. ثم أراه؛ الماء الأخضر المتلامع بعوطًا، الماء السري المنبجس في هدوء من جوف الجبل، خلال الصخور وفروع الشجيرات. ويعسوب أحمر يحلق فوق الماء.

هي من جنت أراها. عين الماء لها، الخرساء المسكينة التي تضرب في خرائب الجن وتوزع أحجارها. عين الماء هي. الماء بلون أفكارها، إنه يتكلم بفمها. أنبطح في الوحل في خضم من الباعوض، وأحس نظرتها. إنها ههنا، متخفية بين الأدغال، وإلى هذا المكان تقود قطيعها من التيوس في وقت الشرب. على ضفاف الحوض آثار الحوافر، وأكوام البراز. رائحة ثيابها، ورائحة لهاتها. أرتعد. أزحف متئدًا حتى أصل إلى الماء، فأبعد الباعوض براحة كفي وأجعل أطيل الشرب من الماء البارد، بلون الزمرد، الماء المتخمر الزاخر بالحياة.

بدأ الظلام يخيم شيئًا فشيئًا. يتناهى إلى مسمعي حفيف ورشان، وغير بعيد أسمع نقيق ضفادع، وفي السماء الرمادية تحليق خفافيش مترنحة.

إنني سعيد، فكأنني ثملت قليلًا من ذلك الماء. أعاود النزول إلى الوادي، باتجاه الضفاف، هنالك حيث يتسلل السياغ كأفعى خلال الأعشاب الطويلة وحقول القمح. ما عدت الآن أشعر بالعزلة. ههنا، في البتراء، أنا قريب من المدخل؛ بل إنني عند باب عالم آخر؛ ذلك العالم الذي لم يدخله الرحالة القديم قط. في مكان آخر، الحرب تفترس الرجال، قتلة شائنون، وضحايا ملاعين لكن هذا الوادي لا تزال تعمره الأرواح.

وجدت القبر في أسفل الوادي، هنالك؛ حيث ينقسم السياغ. إنها تمطر الآن، ولما هممت باجتياز العتبة ترددت قليلًا. هنالك رأيت الصبية الخرساء. على حائط القبر رأيت خيالها، والجلباب الأسود الطويل، وشعرها المبعثر على كتفيها. كان الليل قد أخفى بظله على شفتيها. يشتد خفقان قلبي حتى لألحظ دفاته على جسدي، وفي أعضائي وعند مفصد الذراعين. وفيما كنت أدخل القبر وضعت الحجر الأحمر على الأرض، كأوبول. تلك شعيرة ضاربة في القدم، ما كنت لأنساها أبدًا. أتمدد على الأرض الصلبة وأبحث لبرهة عن مكاني. ينفتح مدخل القبر على لون رمادي في غاية الرقة. ورائحة دخان، لجمر قصي، من وقت كان الأموات يعرفون أن يناموا جماعة.

الصبية الخرساء تجلس بجانبي. أشتم شذى جلدها وثيابها. أتسمع نفسها المنتظم. إنها تسهر، وأنام. أغوص في الحلم من زمن كان الله لا يزال من غير وجه، وكانت أرواحه تسود على الحجر وعلى الريح، وفي قطرات المطر وفي الشمس التي تنحدر إلى دائرة الماء تحت القمر.

أكتب إليك، أنت التي تعيشين على الجانب الآخر من البحر في ذلك البلد القصي، الذي لن تعودي منه. أكتب هذه الكلمات وأنا أعلم أنها لن تصل قط إليك. أكتبها لأرسلها مع الريح، عندما تهب من الصحراء صوب المغرب، فالريح وحدها يمكنها أن تخترق الجبال وتعبر البحر. مضى على مجيئك ثم رحيلك وقت طويل. واليوم يقال إنه بسبب الحرب لن يكون للعالم أن يعمر طويلًا. فأنا حقًا آخر السماوين.

أتذكرك كذكرى حلقا، وأتذكر كل لحظة من ذلك الحلم. الكلمات التي كنت تلهجين بها في لغتك. صفاء عينيك، وذهب شعرك، والكسوة البيضاء الطويلة التي كنت ترتدينها، وتثير استغراب الناس جميعًا، لأن نساء قريتنا لباسهن السواد. كان الأطفال يمشون خلفك. وحيثما مضيت يرافقونك. حينذاك لمحتني واقفًا عند الجرف هناك؛ حيث مؤجرو الخيول. فلماذا اخترتني؟ تراك أدركت أنني كنت يتيم الأب والأم، وأنني لم يكن لي من متاع غير تلك الحقيبة، والكنز الذي تحتوي عليه من صور وأوراق مصفرة؟

مشيت وإياك في مدينة الأرواح، وصحبتك إلى القبور. كان الجو بارداً، وكانت الريح تنفخ رملًا في السيك والأغصان المقتلعة تدوم في طريق الرومان الكبيرة، وفي المسرح. أتذكر؛ كان الغبار يملأ عينيك. لففت رأسك بخرقة بيضاء كبيرة وجعلت تسيرين بعكس اتجاه الريح، لا تنبسين بكلمة، وكنت أسير أتقدمك قليلًا، بجسمي المائل إلى جانب، كما تفعل الكلاب. في ذلك الشتاء سقط الثلج كثيفًا فوق الجبال المحيطة، واكتست السماء بلون الثلج، فكانت بين وردية ورمادية في جهة الشرق وتجمدت السواقي. كان الصمت والصقيع يغمران كل شيء. ثم جاء الناس تباعًا من القرى المجاورة، شيوخًا وأطفالًا، يطردهم البرد، فنزلوا من جديد إلى القبور، كما كانوا يفعلون من قبلُ. دفعوا قطعانهم أمامهم، في الشعب الضيق، فإذا مدينة الأموات قد صارت تتصادى من كل جانب بأصوات الدواب وصيحات الرجال على صهوات الجياد. امتلأ الوادي بالأصوات كما في عهد الفرعون، وقت أن كان يؤمه الجن والإنس. وأما العجوز عائشة فقد آوت إلى قبر الأفاعي، على الطريق إلى جبل هارون. ففي كل يوم يتجمع الأطفال في الساحة، أمام المسرح، أو على طريق الرومان، بانتظار حدث جديد. هكذا جئت، أنت، عندما لم يكن يتوقع مجيئك أحد، بكسوتك البيضاء الطويلة، وشعرك الذهبي وعينيك السماويتين.

جئت، ودخلت حياتي، ففكرت في الحال أنك أنت التي كان يفترض بك أن تجيئي، وكأن كل شيء كان مكتوبًا في كتاب القدر. «ما اسمك؟»، سألتني. كنت تتكلمين لغتنا بلكنة غريبة. تحلّق من حولك الأطفال الآخرون، اليافعون فكانوا جميعًا ينظرون إليك بعيونهم الكامدة. و علي وقع اختيارك من بين كل أولئك الأطفال الذين كانوا يتدافعون ليلمسوا كسوتك.

سرتُ وإياك، طوال تلك الأيام، خلال مدينة الأرواح. لم يكن لدي ما أفعل غير أن أسير إلى جوارك، أتقدم ظلك قليلًا من الصباح حتى المساء. كنت تترددين أحيانًا، فتبحثين عن السبيل الصاعدة إلى القبور، على جانب الجرف. كنت تحملين خارطة كبيرة تملؤها العلامات والرسوم. فأسير قدامك، لأدلك على السبيل. كانت الريح الباردة تلفح وجهك، فتمتلئ عيناك بالدمع.

عندما كنت تدخلين القبور، كنت أبث في الخارج. أقتعد درجات السلم، وأنتظر. في الأسفل، حيث الوادي الريح تكون تثير الغبار، فتطرد الأطفال. ويكون البدو قد عقلوا جيادهم والتجأوا إلى ثنايا الجرف، خلف الصخور. فهم يدخنون. وكنت أرى الشيخ جبري، بأسماله، وقدميه العاريتين، في

صندل مهترئ يلبث جالسا بقرب جواده خشية أن يسرق منه، وكأنه ركوبة رائعة، وما كان إلا فرسا نحيلة، عرجاء، لا تكاد تبصر.

كنت ترسمين على دفتر ذي صفحات مخيطة. ترسمين الأبواب والحيطان والأعمدة والنقائش.

في كل صباح، كنت ترغبين في رؤية الكنز. فإذا انبلج ضوء النهار، ولم يكن من شخص بعدُ في القبر، كنت تدخلينه، وأبث جالسا فوق حجر قبالته، أنظر إلى المرمدة وأنا أحلم أن ستنفتح أخيرًا، وتفرغ ما فيها من ذهب في الساحة المترية.

بعد ذلك صرت تأنسين إلي، فتعهدين إلي بحقيبتك الظهرية. لم أكن رأيت لها مثيلة. كانت من قماش شديد النعومة، مزين بورود مختلفة الألوان، وتنبعث منها رائحة شديدة العذوبة أيضًا عطرك، الذي ما زلت أحمله في ذاكرتي.

لم أجرؤ قط أن أنظر في محتواها. كنت تضعين الحقيبة أرضًا إلى جواري، وأنت تبتسمين. فلما خرجت من القبر كنت مبهورة بفعل الضوء والريح. فتناولت نظارة سوداء من حقيبتك.

وأتذكر، ذات ظهيرة، ونحن خارجان من القبر الملكي كيف أعشت عينيك الشمس، فوقعت. أصبيت إحدى ركبتيك فساعدتك على النهوض. مشيت معتمدة على ذراعي، فكنت أحس حرارة جسمك، وأشتم رائحة شعرك الذهبي، فيشتد لهما خفقان قلبي.

وذات ظهيرة أخرى، على الطريق إلى جبل هارون بإزاء قبر الأفاعي، أذكر ذلك؛ فكأنما حدث أمس، فتملؤني الذكرى فرحًا وأسى، لأن كل ما احتفظت به منك كان ذلك الدخان الخفيف المنبعث من الذكرى. أردت أن تمضي حتى قبر هارون. لم أجرؤ أن أعاكسك، وإن كنت أعلم أنه لا يجوز لي أن أقودك إليه، أنت الغريبة، المسيحية. سرنا في الوادي في الوادي الذي جف عنه السيل. أنا في المقدمة أسير مجانبًا لك قليلًا، دون أن أنبس بكلمة.

وفجأة، وفيما كنا نترك الجبل الذي يسمونه جبل أم البيارة ارتفعت في السماء سحابة سوداء،وهبت على الوادي ريح قوية فأطارت بأكوام من الغبار. تلفعت بمنديلك الأبيض ولففت أنا وجهي بكوفيتي، لكن الريح كانت من الشدة حتى لم تترك لنا سبيلًا للتقدم.كانت قطع الحجارة التي انتزعت من الجبل تنقذف على السبيل، فتصيبنا في الأيدي والوجهين. وفجأة بدأ المطر يتساقط، ثم اشتد حتى صرنا لا نكاد نقوى على التنفس. كان الماء يتساقط من جوانب الجبل كلها، فيزيد في عظم السيل، الذي صار بلون

الدم وتختلط التقصفات بزمجرات السيل. صحت باسمي : سماوين! حسبتني ما زلت أسمع صيحتك، فأختلج فزعًا. أدركت أنك ضعت. كنت خائفة. أمسكت بيدك، وسرت بك حتى الجرف، ناحية الصخور المتهدمة، التي تقود إلى مدخل القبر. هنالك؛ حيث كانت تعيش العجوز عائشة.

كانت المغارة ساخنة، كأنها بيت. نظرنا إلى المطر يتساقط والبروق تخط السماء، والسيل يجرف التراب إلى قعر الوادي. وكنت ترتعدين من البرد، وشعرك المبلول يلتصق بوجهك وكتفتيك. طوقتني بذراعك، وضممتني بشدة. لم يسبق لي أن عرفت كمثل تلك اللحظة. كنا وحيدين في الدنيا، في جوف تلك المغارة، على حافة السيل، فيما التراب كله قد جرفه الماء وكشطته الريح. كانت البروق تلامس الجبال، وتحطمها، فتسمع لها ضجة رهيبة.

لبثنا النهار بطوله قاعدين في جوف المغارة، لابدين إلى الجدار. وعندما توقف المطر سمعت صوت العجوز عائشة تشتكي من جوف القبر المجاور. فمضيت عندها، وقلت لها أن تعد الشاي وشيئا من الطعام. لم تقبل في البداية وجعلت تهدد وتتوعد من جوف كهفها، أشبه بساحرة. ثم جئت أنت في ضوء الشروق غب المطر، فكنت في شدة بياض وفرط جمال كجنية عند بدء العالم وقت أن لم يكن بعد وجود لغير الأرواح التي تسكن هذا الوادي وجبال الشراة، من قبل حتى أن يأتي النبي هارون، وقت أن كان يجري ههنا نهر عظيم، وتمتد المراعي لا يحدها شيء. بذلك كان يتحدث أبي، من فوق الجرف، وبه تحدث والده من قبل. وضعت العجوز عائشة الغلاية على النار لأجل الشاي، وأخرجت من جراب خبزًا وتمرًا لأجلي والغريبة.

طعمت، وشربت الشاي الأسود. كنت ترتعدين من الحمى. في الخارج كان الليل حالك السواد، إلا من شعاع منقطع للبروق فوق الجبال. أنا أيضًا قطعت الخبز وشربت الشاي الحارق. ما عدت أعرف من أكون. خيل إلي أنني أعيش من جديد ذكرى ضاربة في القدم.

ثم مدت العجوز بساطًا بقرب النار، فاضطجعت وأسندت رأسك إلى حجر. تصرّم الليل. فقعدتُ لي مجلسًا عند مدخل القبر، ولبثت في مكاني ساهرًا، فيما كنت، أنت الغريبة، تنامين.

هذا أيضًا شيء لا أقدر أن أنساه. فذلك كان ليلي المكتوب في ذاكرتي؛ ذلك الليل المتخلل باللُمع، والذي يكتنف القبر، والنار المتأرجحة التي تنير كساءك، وأنت تنامين والعجوز عائشة تقذف حفنات من أعواد وجذور يابسة في اللهب، في خضم من زوبعة الدخان وطرطقة الشرار.

دار الليل، فكأنه لم يكن لينتهي أبدًا، وأنت الغريبة تنامين ملفوفة في البساط، ورأسك مسنودة إلى الحجر والعجوز مقرفصة بقرب النار، وقد ازداد وجهها اسودادًا بسبب الدخان وأنا عند مدخل القبر، قد أسندت ظهري إلى الحجر البارد.

وعند الفجر خمدت النار، وذهبت العجوز لتنام في جوف المغارة. توقف المطر. كانت عيناي مجرختين من التعب، لكني أقسمت ألا أنام. انبلج الصبح فجأة، وتبدت الصخور، فهي تزداد احمرارًا. وفي عمق الوادي توقف السيل، فما بقي فيه غير بعض البرك بلون الدم المتخثر.

قبل أن يطلع النهار قفلت راجعًا بالحقيبة التي تحوي كنزي. فاستيقظت. لأجلك ركّبت الرقم السري، وفتحت الحقيبة وجعلت أخرج جميع الرسائل، والصور البريدية التي يظهر فيها البلد حيث توفي أبي.

قرأت الرسائل بصوت مرتفع؛ الرسائل التي كتبتها المرأة ذات الشعر الذهبي، التي حملتني بين ذراعيها وأنا رضيع وناديتها أمي. كنت تقرئين بتلك اللغة الأجنبية المغناة التي لا أعرفها، لكنها جميلة كموسيقى. الشمس الطالعة تكوي جفوني. فأنام، وأنا أنصت إلى الكلمات المغناة، ورأسي مستندة إلى ذراعي، كحين ننصت إلى حكاية.

كل ذلك شيء ولى وانتهى. مات عمي. كان يحارب في جيش عبد الله الكبير، عندما كان الرجال يقاتلون فوق أكتاف الأرض، في سبيل المدينة المقدسة. مات في بيته الإسمنتي، في قرية البدول، وقد أدار وجهه ناحية مدينة الأرواح؛ هنالك حيث كان مولده، ومولد أبي ووالد أبي. لكن الأرواح نفسها ما عادت تعيش في ذلك المكان، وحل محلها السياح والفضوليون الذين صاروا يقطعونه يومًا بعد يوم، كأنهم ريح محملة بالغبار. توقف الجنود المهزومون عند ضفة النهر، وجعلوا من أعلى الجرف ينظرون إلى المدينة المقدسة حتى احترقت أعينهم. ماذا يتبقى للرجال بعد أن تنتهي الحرب؟ الصمت، كما صار اليوم، يخيم على الصحراء الكبيرة جنوبي بغداد؛ الصمت الذي يشد بخناق الأحياء، ويفتح شقًا في قلب الحجارة.

سأظل ما حييت أنتظر أن تعود الفتاة الأجنبية ذات الشعر الذهبي، التي كانت تحمل رسائل والدي، من ذلك البلد النائي الملتمعة جباله بالثلوج، المترامية حقوله المعشبة في سعة البحر. تلك البلدان العجيبة أسماؤها، والتي كان يرددها على مسمعي في القبر، مع مطلع النهار : بازل وبيرن، وفريبورغ، وونترتور ولوسيرن، وسولور، وسيبر والأنهار ذات الأسماء الرقيقة القوية الآر، والرين، والرون التي لا تنقطع مياهها عن الجريان. ذلك البلد الذي كان والدي يتحدث عنه في رسائله؛ حيث ينعم الناس ببحبوحة

العيش، وحيث الأشجار تتقصف تحت ثقل ثمارها والأطفال ذوو عيون شديدة الزرقة. وقد تكون والدتي هي التي ستعود. لا أعرف عنها غير اسمها؛ سارة. وما عدت أمتلك عنها غير تلك الصور؛ إحداها انتزعت من جوازها وفيها تظهر وهي في ميعة الشباب، قد وضعت نظارات طلابية وطبعت على محياها ابتسامة شديدة الوثوق. وأما الصورة الأخرى، التي أظهر فيها وأنا بين ذراعيها فهي باهتة قليلًا قد التقطت على طريق البيضاء، وتظهر في خلفيتها خيمة الصوف السمراء الكبيرة، التي كانت تسكنها ووالدي.

عندما تنبهت من هذه الرؤيا كانت المغارة باردة. العجوز عائشة ناعسة، قد تكومت على نفسها كمومياء. هززتها فلم تكد تنتبه من نومها.

«أين هي؟ أين الأجنبية؟، أجيبيني، أيتها الساحرة كفاك نوما، ألم تري أنها رحلت؟».

ركضتُ لاهث الأنفاس في مدينة الأرواح. كان المطر قد غسل كل شيء، وكنس كل شيء. وجاء الفجر فكان محملًا بمزق من غيوم عظيمة، فهي تتدافع من حول الوادي. وفوق الجبال، ناحية الغرب؛ كتلٌ من ثلج.

كنت ممزق القلب من الصمت والعزلة. لم أكن أعرف حتى اسمها. فصرخت باسم أمها : سارة! وكأن بوسع صرختي أن تخترق الجبال، والبحر، والبراري المترامية وتمضي إلى آخر الدنيا؛ هنالك حيث كانت، وحيث دُفن والدي. فسمعتها والدتي، يوم انقض والدي عضة قاتلة من المنشار القاطع للأشجار العظيمة في الجبال؛ صرخة أطلقها فارتعدت لها، تلك التي حملته في بطنها، وأخرجته إلى الدنيا. ثم رقدت، واستسلمت للموت.

مشيت طوال اليوم في الوادي، صعودا ونزولًا مع السيك بحثا عن آثار لا تبين. على الأرض، وفي قبر العجوز عائشة شممت رائحتها، والمكان حيث رقدت، ورأسها بقرب النار، مستسلمة لغضب العاصفة.

الآن أعرف جيدا أنني لن أرى الغريبة أبدا. لن أذهب إلى الطرف الآخر من العالم. علي أن أبقى ههنا، أسهر على راحة الأرواح. في ذلك المساء نفسه عدت إلى المغارة. قلت للعجوز عائشة أن تهيئ الشاي. فجعلته على صورة كأنما تتحسب لمجيء الغريبة. فقد وضعت الكؤوس الأربعة في الصينية، وصبت الشراب المر. وأردت أن أعوضها فتركت لها الحقيبة وكنزي كله. وأنا موقن أنها ستلقي إلى النار بالصور والرسائل والبطائق البريدية والشهادات. وسوف تزيد كلها سخاما على وجهها وعلى حيطان القبر. وفي الحقيبة المفتوحة أقفالها على الدوام ستضع عائشة كنوزها

هي؛ أقمشتهما الوضيعة، وإبرها، والوشاح الذي تتمنطق به، وعلبها من الشاي الأسود، وربما وضعت فيها بسكوتًا من نوع ماري.

سرت بخطى وئيدة صوب الشمال، باتجاه قرية البدول. في الجبال ما عاد الناس يخلون سبيل الجياد التي يدركها الموت. بل صاروا يمعنون في إنهاكها، حتى آخر رمق. فإذا خرّت على ركبها في عرض الطريق أرسلوا بها إلى القصاب.

أنا آخر السماوين؛ متخفف من المال، ومن غير كنز. اليوم فارقت حيرة الطفولة، وأسلك الطريق نفسها إلى موتي، فكذلك هو مقدر على الرجال.